أحمد عادل كمال

علوم القرآن



علوم القرآن

كتاب المختار
أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩

ص ب ١٧٠٧ القاهرة - الرمز البريدى ١١٥١١ - تليفاكس ٤٩٠٩٥٤١
محمول ٥٨٥٢٧٦٢ /٠١٠ - ٠١٠/١٥٢٨٢٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

لو كان هذا البحث جديراً بهـذا الشرف لاهديتـه الى مرشـدى الامام الشهيد حسن البنا رضى الله عنه وارضاه .

اما وانى لا يطيب لى ان اتجاوز حـدى ، فانى اهـديه الى اخوانى الاحبـاب ، الذين ابتسـموا للمحنة وسـعدوا بالعـذاب ، ليقيموا صرح الدعـوة الى الله بالدماء والدمـوع والعرق ، واثقاً من انهم يتقبلوه اكراماً لاخ لهم .



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد سابق

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيما . والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن القرآن الكريم خير كتاب أخرج للناس فهو هدى ونور . وشفاء لما فى الصدور . ضم بين دفتيه العقائد الصحيحة التى تصل القلوب بالله . والعبادات الصحيحة المزكية للأنفس . والمقوية للإرادات ، والمربية للأرواح ، والأخلاق الكريمة التى تهدف إلى إعلاء النفس الإنسانية ، والبعد عن سفاسف الأمور ورذائل الأعمال ، والأحكام العادلة التى تنظم المجتمع وتقيمه على الأسس الصحيحة وتضمن له السعادة والهناء .

على هذا النحو فهم الرسول وأصحابه كتاب الله عز وجل

فجعلوه نصب أعينهم . وقبلة قلوبهم . وواقع حياتهم . فإذا هم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ، وإذا الله يمكن لهم فى الأرض ويحقق لهم وعده :

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا » .

ثم كان أن هجر المسلمون كتاب الله هجراً غير جميل ، وأخذت تعاليمه تتقلص من المجتمع شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منه إلا آيات تردد للتبرك والتغنى واستنزال الرحمات . أما إنه عقيدة تهدى ، وعبادة تزكى ، وخلق سام ، وحكم عادل ، ودستور شامل . فإنه لا يخطر لهم على بال فجزاهم الله جزاء من أهمل كتابه وأعرض عن تعاليمه .

وكان هذا درساً أيقظ الكثير من شباب هذه الأمة ، فهبوا يطلبون الخلاص على أساس صحيح من كتاب الله وتعاليمه وتجديد الدعوة إليه . وها هو الأستاذ الفاضل والأخ الكريم أحمد عادل كمال يقدم هذه الرسالة النافعة التى حوت ما لا غنى لمسلم عن معرفته فى علوم القرآن (من التنزيل وأسباب النزول والتدوين والناسخ والمنسوخ . . . إلخ) عالج هذه المسائل مع السهولة والاختصار والوضوح ، وهو بهذا يستحق مثوبة الله وحسن جزائه . وإعجاب الغيورين على كتاب الله تعالى وعظيم تقديرهم .

جزاه الله عن دينه خير الجزاء ، وبارك فيه ونفع به .

سيد سابق

دستورنا

مقدمـــة :

إذا عبرنا عن القرآن الكريم بأنه دستور ، فلسنا نقصد أنه يحوى التنظيمات التفصيلية للدولة وتوزيع السلطات فيها . وبيان شكل الحكومة وطريقة الانتخاب إلى آخر هذه الموضوعات المتصلة بالسياسة الداخلية للدولة ، وإنما ينصب التعبير إلى أنه يضع القواعد العامة للحضارة التى جاء بها الإسلام ، ويحمل إلى البشر الروح الربانية التى تهدف إلى صبغ الحياة بها .

إن القرآن كتاب هداية . .

هداية الفرد إلى الإيمان والعمل الصالح . .

وهداية المجتمع إلى الربانية والإنسانية والأخوة . .

وهداية العـالم إلى الله . .

لهذا الوصف — وصف الهداية — وجب أن نضع القرآن فى الصف الأول من قوانين الأمة ونظمها ، حتى يكون مقياساً لها تجيز ما يجيزه ، وترفض ما يرفضه ، محققين بذلك ما أمرنا به من الاحتكام إلى القرآن الكريم :

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

وصبغ الأمة بصبغة الإسلام ، وإن كان امتثالا لإرادة الله

« صِبْغَةَ ٱللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ » .

وهو العليم بخلقه القدير على بيان ما به صلاحهم ، إلا أننا نعرض له كذلك على أنه العدل كل العدل والمصلحة والخير

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا » .

ونتحدى به النظم العالمية والفلسفات الوضعية ، مطمئنين إلى

نتيجة هذا التحدى المقارن ، وما أراد الله بعباده إلا الخير ، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله .

وكلمة أخيرة . . .

. . . هذا الكتاب الكريم الذى يضعه الواحد منا فى جيبه ، ويصحبه معه فى تنقلاته ، ويكثر النظر والتدبر فيه هو الصلة الوحيدة بينه وبين الله ، عن طريقه آمن بمحمد ﷺ ، لأنه معجزته الكبرى الخالدة ، وعن طريقه آمن بالرسل السابقين وكتبهم ، لانقطاع معجزاتهم وتحريف هذه الكتب وضياعها ، وعن طريقه كذلك آمن بالملائكة واليوم الآخر وأمور العالم الغيبى كلـه .

فالقرآن كتاب هدايتنـــا وأمر الله لنا بما فيه مصلحتنا ، والصلة الوحيدة بيننا وبين العالم الروحى كله جديرة منا بكل بحث وعناية وتدبر وتفقه . ولا تقوم هذه الرسالة فى هذا المضمار بغير الإشارة إلى وجوه العناية الواجبة ، والتنبيه إلى المسائل الجديرة بالبحث ، فضلا عما تضعه من خطوط عامة للتدبر والتفقـه فيـه .

ولا أجد أفضل فى تقديمها مما قدم به القرآن نفسه مشيراً إلى معنى الإعجاز . .

« آلٓمٓ . ذٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ »

وإلى معنى الهداية . .

« هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ » .

وإلى الصلة بالعالم الغيبي . .

« ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » .

وإلى الهداية الفردية . .

وامتثال أمر الله . .

« أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِّن رَّبِّهِمْ »

وإلى عنصر الخير والمصلحة . .

« وأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » .

تنزيل القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله بمعناه وبلفظه لقوله تعالى :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ »

يعنى به القرآن . وليس لروح القدس جبريل عليه السلام إلا نقله بلفظه العربى من سماء الأفق الأعلى إلى هذه الأرض . ولا لمحمد الرسول الأمين وخاتم النبيين ﷺ ، إلا تبليغه للناس بلفظه الذى تلقاه عن أمين الوحى جبريل ، ثم بيانه لهم بالقول والعمل ليهتدوا به ، حتى كان ﷺ خلقه القرآن .

وقد جاء التعبير بلفظ النزول فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف . فقال تعالى :

« وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ »

وقال ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف »

والمقصود من الإنزال هنا هو الإعلام به . وقد اختير التعبير بالإنزال والنزول . للتنويه بشرف ذلك الكتاب ، نظراً إلى ما يشير إليه هذا التعبير من علو صاحب هذا الكتاب المنزل علواً كبيراً .

« حمٓ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُون وَإِنَّهُ فِى أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ »[1] .

تنزلات القرآن :

وقد جعل الله للقرآن الكريم ثلاث تنزلات :

١ – التنزيل الأول : إلى اللوح المحفوظ ودليله قول الله تبارك وتعالى :

« بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ »[2] .

وكان هذا الوجود فى اللوح بطريقة وفى وقت لا يعلمها إلا الله . وكان جملة لا مفرقاً .

٢ – التنزيل الثانى : إلى بيت العزة فى السماء الدنيا . يدل على

---

(١) سورة الزخرف ١ – ٤ . (٢) سورة البروج ٢١ – ٢٢ .

ذلك قوله تعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[1] .

وقوله :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ »[2] .

وقوله :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ »[3]

تدل هذه الآيات على أن القرآن أنزل فى ليلة واحدة من ليالى شهر رمضان ، سميت بليلة القدر ، ووصفت بأنها مباركة ، ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن الكريم أنزل على النبى ﷺ مفرداً لا فى ليلة واحدة ، فتعين أن يكون هذا النزول الذى نوهت به هذه الآيات الثلاث نزولا آخر غير النزول على النبى . وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة للنزول فى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكلها موقوفة على ابن عباس ، غير أن لها حكم المرفوع إلى الرسول . من ذلك ما أخرجه الحاكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : « فصل القرآن من الذكر فوضع فى

---

(١) سورة القدر ١ . (٢) سورة الدخان ٣ . (٣) سورة البقرة ١٨٥ .

بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ » .

وهناك أقوال أخرى بمعزل عن التحقيق ، منها : أن القرآن نزل إلى السماء الدنيا فى ثلاث وعشرين ليلة قدر ، ينزل فى كل ليلة قدر منها ما يقدر الله إنزاله فى كل سنة . ثم ينزل بعد ذلك منجماً فى جميع السنة على النبى . ومنها أنه ابتدئ إنزاله فى ليلة القدر . ثم نزل بعد ذلك منجماً فى أوقات مختلفة ، وكأن صاحب هذ القول ينفى النزول جملة إلى بيت العزة . ومنها أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة . وأن الحفظة نجمته على جبريل فى عشرين ليلة ، وأن جبريل نجمه على النبى فى عشرين سنة .

٣ — التنزيل الثالث : وهو المرحلة الأخيرة التى أضاء نورها العالم بواسطة جبريل أمين الوحى عليه السلام ، هبط به على قلب النبى ﷺ .

والوحى يكون على أنواع : فنه ما يكون مكالمة بين العبد وربه كما كلم الله موسى تكليما . ومنه الإلهام الذى يقذفه الله فى قلب نبيه على وجه من العلم لا يشك فيه ولا يرتاب . ومنه ما يكون رؤيا صادقة تقع وتتحقق ، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحى جبريل . ووحى القرآن كله من هذا الصنف الأخير وهو المصطلح عليه بالوحى الجلى :

« نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين »[1]

وكان لنزول الوحي على النبي طريقتان :

١ – أن يأتيه مثل صلصلة الجرس فيفصم عنه وقد وعى ما قال . تقول عائشة رضي الله عنها تصف رسول الله ﷺ : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » .

٢ – أن يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعي ما يقول .

أما كيف أخذ جبريل القرآن ، فهذا من أنباء الغيب التي لا يعلمها إلا الله .

أول ما نزل من القرآن :

ولمعرفة أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل فوائد منها :

١ – تمييز الناسخ من المنسوخ .

٢ – معرفة تاريخ التشريع الإسلامي ، ومراقبة سيره التدريجي ، والوصول من ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته في أخذه الناس بالرفق والبعد بهم عن الطفرة .

---

(١) سورة الشعراء ١٩٣ – ١٩٥ .

٣ — إظهار مدى العناية التى أحيط بها القرآن الكريم حتى عرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل كما عرف مكيه ومدنيه وغير ذلك .

وإن كنا لن نذكر هنا أول ما نزل وآخر ما نزل فى كل شأن من تعاليم الإسلام فهذا مجهود كبير ، إنما الميسور فى هذه العجالة أن نذكر أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل منه على الإطلاق كذلك .

فكان أول ما نزل من القرآن على النبى ﷺ قوله تعالى :

« إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[1] .

وورد بهذا أحاديث صحيحة خرجها البخارى ومسلم والحاكم والبيهقى والطبرانى . وكان ذلك بغار حراء خارج مكة فى السابع عشر من شهر رمضان سنة واحد وأربعين من ميلاد الرسول ﷺ ، فقد ولد النبى فى سنة ٥٧١ م ووافق بدء نزول

(١) سورة العلق ١ — ٥

الوحى سنة ٦١١ م . وهذا هو أصح الأقوال الذى تطمئن إليه النفس .

وقد ورد غير ذلك أقوال أخرى نجملها فيما يلى :

٢ ـ أن أول ما نزل من القرآن :

« يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرْ » .

وورد فى ذلك رواية عن سلمة بن عبد الرحمن بن عوف خرجها الشيخان وهى رواية ليست نصاً فيما نحن بسبيله من إثبات أول ما نزل من القرآن بل تحتمل أن تكون عما نزل بعد فترة الوحى .

٣ ـ سورة الفاتحة كانت أول ما نزل ، ويستدل أصحاب هذا الرأى بحديث مرسل سقط من سنده الصحابى ورواه البيهقى ولم يقل بهذا القول إلا عدد أقل من القليل .

آخر ما نزل من القرآن :

وآخر ما نزل من القرآن قوله تعالى :

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا » .

وكان ذلك بمنى يوم الحج الأكبر فى التاسع من ذى الحجة سنة

عشر من الهجرة الموافقة للسنة الثالثة والستين من ميلاد الرسول ﷺ ، وكان ذلك سنة ٦٣٣ م . وبذلك تكون فترة الوحي بين مبتدأ التنزيل ومنتهاه ٢٢ سنة وشهرين و٢٥ يوما .

إلا أن آخر ما نزل من القرآن مختلف فيه كذلك . واستند كل صاحب رأي إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي ، فكان هذا مدعاة لكثرة الاختلاف . من ذلك :

١ ــ أن آخر ما نزل :

« وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون »(١) .

وعاش النبي بعدها تسع ليال . ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول . والآية من سورة البقرة .

٢ ــ أن آخر ما نزل :

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ . . وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »(٢)

٣ ــ أن آخر ما نزل :

---

(١) البقرة ٢٨١ .

(٢) البقرة ٢٨٢ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[1] .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بما قاله السيوطى من أن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف لأنها فى قصة واحدة فأخبر كل عن بعض ما أنزل بأنه آخر .

ويبدو أن سبب الاختلاف فى هذا الأمر أن جميع ما ورد من أقوال فى هذا الصدد ليس مرفوعاً إلى النبى ﷺ ، وقال كل باجتهاده وغلبة ظنه ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ، وإن كان لا يعنى أنه آخر ما أنزل .

ولكن الرأى الأول القائل بأن آية :

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » .

هى آخر ما نزل هو الأرجح ، لأن الظاهر أن إكمال الدين لايكون إلا بإكمال نزول القرآن وإتمام جميع الفرائض والأحكام.

كيفية النزول :

كانت الآيات فى الغالب تنزل جواباً لحوادث تحدث . من ذلك أن رسول الله ﷺ أرسل مرثداً الغنوى إلى مكة لإخراج

(١) البقرة ٢٧٨ .

فئة من المسلمين المستضعفين فعرضت امرأة من المشركات نفسها عليه ليخطبها ، وكانت ذات مال وجمال ، فأعرض عنها خوفاً من الله ، فألحت عليه فقبل ، ولكنه شرط قبوله بموافقة الرسول . فلما رجع إلى المدينة وعرض على الرسول قضيته نزل قوله تعالى :

« وَلَا تَنْكِحُوا ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »[1] .

وقف محمد ﷺ على الصفا يهتف : يا معشر قريش . قالت قريش محمد على الصفا يهتف ، فاجتمعوا إليه . قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني ؟ قالوا نعم أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط . قال فإني

(١) سورة البقرة ٢٢١ .

نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فصاح به أبو لهب : تباً لك سائر هذا اليوم ، ألهذا جمعتنا ! فنزل قوله تعالى :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ »(١)

وهكذا نزلت أكثر آيات القرآن .

٢ — كانت الآيات تنزل جواباً عن أسئلة ، وهذه واضحة ظاهرة فى القرآن مثل قوله تعالى :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ »(٢) .

« يَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا »(٣) .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا »(٤) .

---

(١) سورة اللهب ١ — ٣ .
(٢) سورة الأنفال ١ .
(٣) سورة الكهف ٨٣ .
(٤) سورة النازعات ٤٢ .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا . وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ »[1]

« وَيَسأَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُم خَيْرٌ »[2] .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٌ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ ٱللهِ »[3] .

« يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَالَةِ »[4] .

---

(١) سورة البقرة ٢١٩ .
(٢) سورة البقرة ٢٢٠ .
(٣) سورة البقرة ٢١٧ .
(٤) سورة النساء ١٧٦ .

وهكذا نزل كثير من آيات القرآن الكريم .

٣ – وأحياناً كانت الآيات تنزل ابتداء وقليل ما كان يحدث هذا.

وكانت الآيات تنزل تباعاً خمس آيات وعشر آيات ، وأكثر من ذلك وأقل . وقد صح نزول عشر آيات فى قصة الإفك جملة ، وصح نزول عشر آيات من أول سورة المؤمنين جملة . وصح نزول « غير أولى الضرر » وحدها فى قوله تعالى :

« لَا يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ »[1] .

أسباب التنزيل منجماً :

أنزل الله القرآن جملة إلى السماء الدنيا ، ثم فرقه على النبى ﷺ فى أكثر من عشرين سنة على النحو الذى ذكرنا . وقد كانت الكتب السماوية من قبل تنزل جملة واحدة .

وكان تنزيل القرآن منجماً – أى مفرقاً على دفعات – مثار اعتراضات من المشركين :

---

(١) سورة النساء ٩٥ .

«وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً . كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » .

ولكن هذه الاعتراضات مردودة ، لأن لتنزيل القرآن منجماً أسباباً ودواعى نجملها فيما يلى :

١ – تثبيت فؤاد النبى ﷺ :

(ا) لأن فى تجدد الوحى وتكرار نزول الملك به ، تسرية للنبى ، فيتجدد فى كل مرة . وفى تعهد الله لرسوله عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه ما يهون عليه الشدائد .

(ب) فى التنجيم تيسير على الرسول فى حفظ القرآن وفهمه .

(ج) فى كل مرة من مرات النزول المنجم معجزة جديدة غالباً ، حيث تحداهم كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نوبات التنزيل.

(د) فى تنزيل القرآن منجماً تكراراً للذة فوزه ﷺ وإفحامه لأعدائه .

هذه الوجوه الأربع هى مضمون قوله تعالى :

« كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » .

٢ – فى القرآن الكريم رد على المشركين فى أسئلتهم وجدالهم

مع الرسول ﷺ . وتصحيحات لحوادث سلفت فهذه لايستساغ أن تنزل إلا فى مناسباتها ولو أن القرآن أنزل دفعة واحدة لفقد هذه الميزة . فنزول القرآن منجماً على هذه الصورة يساير الحوادث فى تجددها وتفرقها :

(ا) لإجابة السائلين على أسئلتهم .

(ب) لمجاراة القضايا والوقائع فى حينها ببيان حكم الله فيها .

(ج) للفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أخطائهم وإرشادهم إلى الصواب فى الوقت نفسه .

(د) لكشف حال المنافقين للنبى ﷺ وللمسلمين ليأخذوا حذرهم وليتوب منهم من يشاء .

هذه الحكمة بوجوهها الأربع تندرج تحت قوله تعالى :

« وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » .

٣ – ردود القرآن على المشركين بنزوله على دفعات بمثابة ضربات للمشركين : فإذا توالت الضربات فى جولات كان ذلك أبلغ فى التهذيب .

٤ – التدرج فى تربية الأمة الناشئة علماً وعملا :

(ا) بتيسير حفظ القرآن على أمة أمية كالعرب ، فلو نزل جملة لعجز المسلمون الأول عن حفظه .

(ب) لتسهيل فهمه عليهم .

(ج) التدرج فى انتزاع العقائد الباطلة والعادات المرذولة بترويض الأمة على هذا التخلى شيئاً فشيئاً بسبب نزول القرآن تدريجياً . فكلما نجح فى هدم باطل انتقل بهم إلى هدم باطل غيره حتى طهرهم من رجزهم وهم لا يشعرون بإرهاق ، وهذا هو السبيل لتربية أمة عنيدة تتحمس لموروثاتها .

(د) التدرج فى غرس العقائد الحقة والعبادات الصحيحة والأخلاق الفاضلة .

فالتشريعات الجديدة المخالفة لعادات الناس يلزم التمهيد لها والتدرج فى فرضها حتى تتقبلها النفوس بقبول حسن . وفى القرآن تشريعات نزلت على خطوات نفسية مناسبة لتتمشى مع عادات البشر . ولو أنها نزلت دفعة واحدة لشعروا بثقلها ووطأتها عليهم لأن المصلح لا ينبغى أن يظهر تشريعاً قبل تهيئة الجو لذلك .

(٥) تثبيت قلوب المؤمنين وشد أزرهم بفضل قصص الأنبياء السابقين وما تعرضوا له من محن وابتلاءات مما جاء به

القرآن الكريم مرة بعد أخرى على فترات متفاوتة .

وهذه الحكمة بوجوهها الخمسة هي مضمون قوله تعالى :

« وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَى مُكْثٍ »[1] .

٥ – في القرآن معان عمد إلى تكرارها حتى تتأثر به نفس السامع وهذا لا يتيسر إلا إذا نزل منجماً ليتمشى مع الدعوة كأن ينزل في أماكن مختلفة وأوقات متباينة ومناسبات متفرقة .

٦ – بيان أن القرآن كلام الله وحده لأنه من أوله إلى آخره محكم السرد متين الأسلوب على نسق واحد آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته معجز كله من ألفه إلى يائه ، وجاء أوله مواتياً لآخره ، وهذا لا يتسق لكتاب لم يتنزل جملة واحدة بل في مدى أكثر من عشرين عاماً :

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

فالقرآن خارق للعادة من هذه الناحية . وكان الرسول إذا

---

(١) سورة الإسراء ١٠٦ .

نزلت آية أو آيات قال « ضعوها فى مكان كذا من سورة كذا » وهو بشر لا يدرى ما ستجئ به الأيام وما سينزل الله فيها فتمضى السنون الطويلة والرسول على هذا العهد ثم إذا القرآن كله يكمل ويتم ويعجز الخلق طراً :

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » .

يقول الزرقانى فى مناهل العرفان : خذ مثلا حديث النبى وهو ما هو فى روعته وبلاغته وطهره وسموه . لقد قاله الرسول فى مناسبات مختلفة لدواع متباينة فى أزمان متطاولة . فهل فى مكنتك ومكنة البشر معك أن ينظموا من هذا السرد الشتيت وحده كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والوحدة من غير أن ينقصوا منه أو يتزيدوا عليه أو يتصرفوا فيه . اه .

* * *

معنى أسباب النزول :

سبب النزول هو الحادث الذى نزلت الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه موضحة لظروف إنزالها . فهى أشبه شئ بالمذكرات التفسيرية فى التشريع الحديث .

فهل معنى هذا أن يكون لابد لكل آية سبب نزلت من أجله بمعنى أن ننتظر أن تكون أسباب النزول بعدد آيات القرآن ، أو على الأقل بعدد مرات النزول ؟ سبق أن ذكرنا تحت عنوان « كيفية النزول » أن نزول الآيات كان له كيفيات ثلاث . الأولى : أن تنزل جواباً عن حوادث ، والثانية : أن تنزل جواباً عن أسئلة ، والثالثة : أن تنزل ابتداء بدون حادث أو سؤال . ونضيف هنا أن هناك ضربين من الآيات :

١ – ضرب يتحتّم فيه معرفة سبب النزول مثل آيات الأحكام للزوم معرفة سبب النزول لتحقيق البحث فى هذه

الأحكام للوصول إلى معرفة أصول التشريع . لأن معرفة السبب تساعد على معرفة وجه الحكمة الباعثة على التشريع ولبيان تخصيص الحكم أو نسخه . وبذلك يتنافى التعارض الظاهرى فى القرآن .

٢ – ضرب لا يتحتم فيه معرفة السبب مثل آيات القصص . فإن أغلبها نزل من غير سبب خاص . ولا يؤخذ من هذا أن جميع آيات القصص لا يتحتم الرجوع فيها إلى معرفة السبب . فهناك بعض القصص لا يفهم إلا إذا عرف السبب ، مثل آيات الإفك وقصة الخضر مع موسى فى سورة الكهف . ومما لا يتحتم فى فهمه معرفة السبب قصص الأمم الغابرة لأنها واردة للعبرة والعظة . ولذلك يلاحظ أن قصص الأمم البائدة تتكرر مثل قصة موسى وإبراهيم . كذلك لا يتحتم معرفة أسباب النزول فى آيات العبادة والزجر والوعد والوعيد والموعظة والإرشاد والأمر والنهى مثل قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ » .

حكمة معرفة أسباب النزول :

أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن لدليلين :

وبهما يعرف إعجاز نظم القرآن . فالكلام الواحد يختلف فهمه بحسب الأحوال أو بحسب المخاطبين أو بغير ذلك . فالاستفهام مثلا لفظه واحد وإنما يحتمل معانى كثيرة من تقرير أو توبيخ أو إنكار . والأمر مثلا يدخله الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها .

٢ ــ معرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكل من هذا القبيل فهى مهمة فى فهم الكتاب . وجهل سبب النزول موقع للاشتباه والإشكال . قال الواحدى : « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » .

طريق معرفة سبب النزول :

الطريق الوحيد لمعرفة أسباب النزول هو النقل الصحيح . فإن روى سبب النزول عن صحابى فهو مقبول وإن لم يعزز برواية أخرى تقويه . وحكمه حكم المرفوع[1] إلى النبى ﷺ لأنه يبعد كل البعد بل يستحيل أن يقول الصحابى ذلك من تلقاء نفسه على حين أنه خبر لا مرد له إلا السماع والنقل أو السماع والرؤية . أما إذا روى سبب النزول بحديث مرسل سقط من سنده الصحابى

---

(١) الحديث المرفوع هو ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم خاصة أو هو ما أخبر به الصحابى عن فعل النبى أو قوله .

وانتهى إلى التابعى فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا صح بمرسل[1] آخر وكان الراوى له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن المسيب والحسن البصرى وعطاء وقتادة والضحاك .

التعبير عن سبب النزول :

تختلف العبارات التى ترد للتعبير عن سبب النزول . فأحياناً يصرح فيها بلفظ السبب فيقال سبب نزول الآية كذا . وأحياناً يؤتى بفاء داخلة على كلمة النزول أو ما فى محلها عقب سرد حادثة كأن يقال حدث كذا وكذا فنزلت آية كذا وأحياناً يسأل الرسول فيوحى إليه ويجيب بما نزل عليه فتفهم السببية قطعاً من المقام . كل هذا يعتبر نصاً فى سبب النزول لا يحتمل غيره . أما إذا قيل نزلت هذه الآية فى كذا . فهذه العبارة ليست نصاً فى السببية بل تحتملها وتحتمل أمراً آخر هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام . والقرائن وحدها هى التى تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه .

---

(١) الحديث المرسل هو ما سقط من سنده الصحابى ورواه تابعى كبير والمرسل حديث ضعيف عند جماهير المحدثين .

تعدد أسباب النزول لنازل واحد :

قد تجئ روايتان فى سبب نزول آية من القرآن ، فإذا كانت إحدى الروايتين صحيحة والأخرى غير صحيحة أخذ بالصحيحة وردت الأخرى . أما إذا كانت الروايتان صحيحتين ولإحداهما مرجح أخذنا فى بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة . والمرجح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى أو أن يكون راوى إحداهما مشاهداً للقصة دون راوى الأخرى . أما إذا استوت الروايتان فى الصحة ولا مرجح لإحداهما ويمكن الجمع بينهما بأن كلا من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً لتقارب زمنيهما ، فالحكم هنا أن نحمل الأمر على تعدد السبب لأنه الظاهر ولا مانع يمنعه . قال ابن حجر : لا مانع من تعدد الأسباب . أما إذا استوت الروايتان فى الصحة دون مرجح لإحداهما مع استحالة الأخذ بهما معاً لبعد الزمن بين الأسباب فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التى تحدثت عنها الروايتان لأنه إعمال لكل رواية ولا مانع منه . قال الزمخشرى فى البرهان : قد ينزل الشئ مرتين تعظيما لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه خوف النسيان .

وكما قد يكون للآية الواحدة أكثر من سبب واحد لنزولها

فكذلك قد يكون الأمر الواحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعددة.

فوائد معرفة أسباب النزول :

١ – معرفة حكمة الله تعالى فيما شرعه بالتنزيل . خصوصاً إذا لاحظنا سير ذلك التشريع وتدرجه فى موضوع واحد . كتحريم الخمر .

٢ – دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر .

٣ – معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين حتى لا يشتبه بغيره فيتهم البرئ ويبرأ المريب مثلا .

٤ – تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحى فى ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها ، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل أولئك من دواعى تقرير الأشياء فى الذهن وتسهيل استذكارها .

كان النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب . وقد ذكر هذا فى القرآن الكريم فقال تعالى :

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُون »

وقال :

« فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون » .

كذلك اتسمت الأمة العربية بالأمية وتحدث القرآن الكريم عن هذا فقال :

« هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ ٱلْكِتَابَ

وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ »[1] .

ولم يشذ عن هذا القول إلا أفراد قلائل من قريش تعلموا الخط ودرسوه قبيل الإسلام . أما أهل المدينة فكان بينهم أهل الكتاب من اليهود . ودخل النبى المدينة وفيها يهودى يعلم الصبيان الكتابة وكان فيها بضعة عشر رجلا يحذقون الكتابة . وتعلم زيد بن ثابت كتابة اليهود بأمر النبى .

ثم جاء الإسلام فحارب فيما حارب أمية العرب فكان من أول ما أنزل :

« إِقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ . ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[2] و « نٓ . وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ »[3] .

وجعل الرسول فداء أسرى بدر أن يعلم كل منهم عشرة من أصحابه الكتابة والخط وبذلك بددت أنوار الإسلام ظلمات الأمية شيئاً فشيئاً .

---

(١) سورة الجمعة ٢ . (٢) سورة العلق ٣-٥ . (٣) سورة القلم ١-٢.

فكان النبي ﷺ يتحمل القرآن من الملك حفظاً ثم يأمر كاتباً أن يكتبه بين يديه على عسيب (وهو جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض وجمعها عسب) أو لخف (جمع لخفة وهى الحجارة الرقيقة أو صفائح الحجارة) أو رقعة . وكان له كتاب معروفون ، قيل إن عددهم ستة وعشرون ، وقيل اثنان وأربعون ، وقيل غير ذلك وأشهرهم الخلفاء الأربعة وعامر بن فهيرة وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص والزبير بن العوام ، كذلك كانوا أحياناً يكتبون الوحى ابتداء من أنفسهم دون أن يكلفهم الرسول بذلك .

وكان هذا المكتوب يوضع فى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ويكتب الكتاب لأنفسهم نسخة منه ويدلهم الرسول على موضع كل ما ينزل من الآيات من سورته .

كذلك كان يتلوه على المسلمين فيحفظونه عن ظهر قلب . فكانت حافظة الأميين وصحف الكاتبين والصحف التى فى بيت الرسول كلها تتعاون على حفظ ما أنزل الله ، ولم يجمع القرآن فى مصحف فى هذا العهد وإن كان من الصحابة من جمع القرآن كله حفظاً ، منهم : عبد الله بن مسعود ، وسالم بن معقل مولى

أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعلى بن أبى طالب .

ثم لقى رسول الله ربه وولى الخلافة أبو بكر الصديق رضى الله عنه ولم يفكر أحد فى جمع القرآن الكريم بين دفتين . فبقى القرآن هكذا فى حياة النبى وعاما بعد وفاته مسطوراً فى القلوب مسجلا كله على أجزاء متفرقة فى نسخ تزداد كل يوم عدداً . وكان لزاماً أن يتطابق هذان المصدران تمام التطابق لأن القرآن الكريم كان منظوراً إليه برهبة اليقين إلى أنه كلام الله وكان كل خلاف فيه يرجع إلى النبى ﷺ كى يزيله .

الصحف والمصاحف :

فى اللغة : الصحف جمع صحيفة ، وهى القطعة من الورق ، أو الجلد يكتب فيها . أما المصحف فهو ما يجمع فيه الصحف فالملحوظ فى معناه اللغوى دفتاه وهما جانباه أو جلداه اللذان يتخذان جامعاً لأوراقه حافظاً لصحفه .

وفى الاصطلاح : الصحف هى الأوراق المجردة التى جمع فيها القرآن فى عهد أبى بكر ، وكانت سوراً مرتبة آياتها فقط كل سورة على حدة ولكن لم يترتب بعضها إثر بعض . أما المصحف فهو الأوراق التى جمع فيها القرآن مع ترتيب آياته وسوره جميعاً على الوجه الذى أجمعت عليه الأمة أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه.

صحف أبي بكر :

لما نشبت حروب الردة وكانت مذبحة اليمامة التى اشتد فيها القتل وكان جل المحاربين فيها من الصحابة ومن حفاظ القرآن فاستشهد فيها مائتان وألف بينهم تسع وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن وقيل سبعون وقيل سبعمائة من أجلهم سالم بن معقل مولى أبى حذيفة ، وكان قد قتل عدد كبير آخر من الحفاظ فى حياة النبى ﷺ فى حادث بئر معونة . فخاف عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يموت أشياخ القراء كأبى وابن مسعود وزيد ، فأشار على أبى بكر رضى الله عنه بجمع القرآن وندبا لذلك زيد بن ثابت رضى الله عنه فجمعه غير مرتب السور بعد عناء شديد ونصب .

روى البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإنى لأرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ورأيت الذى رأى

عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم . فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ »[1] .

وقال ابن شهاب الزهرى وجدها مع أبى خزيمة الأنصارى لا مع خزيمة .

---

(١) آية ١٢٨ – ١٢٩ .

وكانت الصحف التى جمع فيها القرآن فى حيازة أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم عهد بها إلى حيازة أم المؤمنين حفصة بنت عمر .

هذا هو الجمع الأول للقرآن بدأه زيد بن ثابت رضى الله عنه فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وانتهى منه فى عصر الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم يزد على أنه جمع ما عند المسلمين من انتساخ لأجزاء متفرقة من القرآن وما كان فى صدور الحفاظ ، واستغرقت عملية الجمع هذه حوالى سنتين أو ثلاث . وقد امتازت هذه الصحف بميزات :

١ – أنها جمعت القرآن كله على أدق وجوه البحث والتحرى والتثبت العلمى .

٢ – أنها اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته .

٣ – أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها .

مصاحف الصحابة :

وكتب بعض الصحابة مصاحف من تلقاء أنفسهم . كتبوها لأنفسهم . اختصت ثلاثة مصاحف منها بالثقة ، وهى : مصحف ابن مسعود ومصحف أبى بن كعب ومصحف زيد بن ثابت . وكلهم قرأ القرآن وعرضه على النبى ﷺ : عبد الله بن

مسعود قرأ بمكة وعرضه هناك . وأبى بن كعب قرأ بعد الهجرة وعرضه فى ذلك الوقت . أما زيد بن ثابت فقرأه بعدهما وعرضه متأخراً عن الجميع وهو آخر عرض إذ كان فى سنة وفاة الرسول ﷺ ووفق قراءته ، وقد ذكر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه جمع مصحفاً لما رأى من الناس طيرة عند وفاة النبى عليه الصلاة والسلام .

مصحف عثمان :

ذكر الطبرى : وكان عمر بن الخطاب قد حظر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوا ذلك فقال « ألا إنى قد سننت لكم سن البعير . يبدأ فيكون جذعاً[1] ثم ثنياً[2] ثم رباعياً[3] ثم سديساً[4] ثم بازلا[5]. ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ؟ ألا فإن الإسلام قد بزل ، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حى فلا . إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار » اهـ .

---

(١) الجذع من البعير ما كان فى سن الخامسة .

(٢) الثنى ما كان فى سن السادسة . (٣) الرباعى فى السابعة .

(٤) السديس فى الثامنة . (٥) البازل فى التاسعة .

وانتشر الفتح والتوسع واستشهد الخليفة الثانى وتولى الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فأباح ما حرم عمر وتفرق الصحابة فى الأمصار واشتدوا فى ذلك ، وقرأ أهل كل مصر بقراءة من نزل بينهم من الصحابة والقراء ، فاختلفوا فى القراءات وعظم اختلافهم وتشبثهم ، فقرأ أهل دمشق عن المقداد بن الأسود ، وقرأ أهل الكوفة عن عبد الله بن مسعود ، وقرأ أهل البصرة عن أبى موسى الأشعرى ، وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة أبى ابن كعب .

أخرج ابن أبى داود فى المصاحف من طريق أبى قلادة أنه قال : « لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة الرجل . فجعل الغلمان يلتقون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضاً فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال : «أنتم عندى تختلفون فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافاً» .

واجتمع فى غزو أرمنيا أهل الشام وأهل العراق فاختلفوا فى القراءة وتنازعوا وتلاعنوا ورمى بعضهم بعضاً بالكفر ، وكان معهم حذيفة بن اليمان الأنصارى رضى الله عنه ، فأشفق مما رأى ، فلما رجع إلى المدينة قصد إلى بيت عثمان بن عفان رضى الله عنه قبل أن يدخل بيته وقال له : « أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك !

قال فى ماذا ؟ قال فى كتاب الله . . ووصف له ما تقدم وقال إنى أخشى عليهم أن يختلفوا كما اختلف اليهود والنصارى » .

فجمع عثمان المهاجرين والأنصار وجملة أهل الإسلام وشاورهم فى الأمر وقال : ما ترون فى المصاحف ؟ فإن الناس قد اختلفوا فى القراءة حتى أن الرجل ليقول قراءتى خير من قراءتك وقراءتى أفضل من قراءتك وهذا شبيه بالكفر . قالوا ما الرأى عندك ياأمير المؤمنين ؟ قال الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة ، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافاً . قالوا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين .

فأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر يطلب منها الصحف لينسخها فى المصاحف بعد عرض قراءات البلاد للمرة الأخيرة ، وعززه هذه المرة بثلاثة من القرشيين هم : عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وقال لهم عثمان : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا . وجعلوا الصحف التى كانت عند حفصة إماماً فى هذا الجمع الأخير . فلما أتموا ذلك نسخوا من المصحف عدة نسخ ، ورد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سوى

ذلك من القرآن فى الصحف والمصاحف فحرق . وتم هذا الجمع الثانى سنة ٢٥ هجرية .

وقد وردت بعض الروايات أن الذين ندبوا لنسخ المصاحف كانوا اثنى عشر رجلا وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة ويقروا أن الرسول قرأ على هذا النحو الذى نجده الآن فى المصاحف .

وفى قول آخر أن زيد بن ثابت جمع القرآن فى المرة الثانية كما جمعه فى المرة الأولى ثم قارن الجمع الثانى بالجمع الأول من الصحف التى عند حفصة فوجده مطابقاً لها تمام التطابق .

وبقيت الصحف عند حفصة بعد أن أعادها إليها عثمان حتى توفيت ، فأرسل مروان والى المدينة إلى عبد الله بن عمر فى شأن الصحف ليبعث بها إليه فأرسلها له فغسلت غسلا ثم حرقت وكان مروان قد طلبها من حفصة رضى الله عنها من قبل فأبت .

وقد غضب عبد الله بن مسعود وكره أن يندب زيد لنسخ المصاحف ويترك هو ، فقال يا معشر المسلمين : أعزل من نسخ المصاحف ويتولاه رجل ، والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر ! ولم يكن اختيار زيد بن ثابت لجمع القرآن فى خلافة أبى بكر وكذلك فى خلافة عثمان لأفضليته على عبد الله ابن مسعود ، فابن مسعود أقدم فى الإسلام وأكثر سوابق وأعظم

فضائل ، ولكن زيداً كان أحفظ للقرآن من ابن مسعود ، فقد حفظه ووعاه فى حياة الرسول ﷺ ، أما ابن مسعود فقد حفظ فى حياة الرسول أكثر من سبعين سورة ثم تعلم الباقى بعد وفاته . وبهذا قدم زيد على ابن مسعود فى جمع القرآن ونسخه ، وليس فى هذا طعن أو انتقاص من ابن مسعود . وقال بعض الأئمة : إن ابن مسعود مات ولم يحفظ القرآن كله — قال القرطبى : هذا فيه نظر . وما نحسب أن ابن مسعود يغضب هذه الغضبة لتولى غيره جمع القرآن إلا أن يكون حافظاً واعياً له كله .

ثم عاد عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أخيراً إلى حظيرة الجماعة حين ظهرت له مزايا المصاحف العثمانية واجتماع الأمة عليها وتوحيد الكلمة بها .

وحدث فى هذا الجمع الثانى ما رواه البخارى عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى ، الذى جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين :

« مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنْتَظِر » ،

فألحقها رضى الله عنه بسورتها . وقيل وجدها مع أبى خزيمة.

وكانوا يختلفون فى الآية فيقولون أقرأها رسول الله ﷺ فلاناً ابن فلان ، فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيرسل إليه فيجاء به ، فيقال : أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا ؟ فيكتبون كما قال . أخرج البخارى والترمذى عن ابن شهاب قال : واختلفوا يومئذ فى التابوت ، فقال زيد التابوه ، وقال ابن الزبير وسعيد بن العاص التابوت ، فرفع اختلافهم إلى عثمان ، فقال اكتبوه بالتاء فإنه بلسان قريش فأثبتوه بالتاء .

وقد امتازت المصاحف العثمانية بأنها :

١ — اقتصرت على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحاداً .

٢ — أهملت ما نسخت تلاوته ولم يستقر فى العرضة الأخيرة .

٣ — رتبت السور والآيات على الوجه المعروف الآن بخلاف صحف أبى بكر التى كانت مرتبة دون السور .

٤ — كتبت بطريقة جمعت وجوه القراءات المختلفة ، والأحرف التى نزل عليها القرآن على ما سيأتى شرحه .

٥ — جردت من كل ما ليس قرآناً ، كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفه الخاصة شرحاً لمعنى أو بياناً لناسخ أو منسوخ.

رسم المصحف :

المراد به الوضع الذى ارتضاه عثمان بن عفان فى كتابة كلمات القرآن وحروفه : والأصل فى المكتوب أن يوافق المنطوق تماماً من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل ولا تغيير ، ولكن المصاحف العثمانية أهملت هذه القاعدة فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفاً لأداء النطق .

وقد ألف بعض العلماء مصنفات فى حصر كلمات القرآن التى جاء خطها على غير منطوقها ، مثل المقنع للإمام أبى عمرو الدانى ، وعنوان الدليل فى رسوم خط التنزيل للعلامة أبى عباس المراكشى ، ونظم الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالمتولى أرجوزة سماها اللؤلؤ المنظوم فى ذكر جملة من المرسوم ، ثم شرحها الشيخ محمد خلف الحسينى شيخ المقارىء بالديار المصرية وذيل الشرح بكتاب سماه مرشد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه فى رسم القرآن .

قواعد رسم القرآن :

ولمصحف عثمان قواعد فى خطه ورسمه ، تنحصر فى ست قواعد وهى :

١ ــ **الحذف** : وفيه قواعد حذف الألف فى مثل « يأيها » وغيرها ، وحذف الياء من مثل « أطيعون » وحذف الواو واللام .

٢ – **الزيادة** : مثل زيادة ألف بعد واو الجماعة وغيرها .

٣ – **الهمز** : وخلاصتها أن الهمزة إذا كانت ساكنة تكتب بحرف حركة ما قبلها مثل « ائذن – البأساء » إلا ما استثنى . أما الهمزة المتحركة فلها قواعد أخرى .

٤ – **البدل** : خلاصتها أن الألف تكتب واواً للتفخيم فى مثل الصلاة والزكاة والحياة إلا ما استثنى ، وترسم ياء إذا كانت منقلبة عن ياء مثل يتوفاكم ويا أسفا . وفى بعض كلمات أخرى مثل إلى وعلى . وترسم النون ألفاً فى نون التوكيد الخفيفة وفى كلمة « إذن » وغير ذلك .

٥ – **الوصل والفصل** : خلاصتها أن كلمة (أن) توصل بكلمة (لا) إذا وقعت بعدها ، إلا ما استثنى . ووصل (من) بكلمة (ما) إذا وقعت بعدها إلا ما استثنى ، وغير ذلك كثير فتوصل (نعماً وربما وكأنما وويكأن) .

ما فيه قراءتان : وخلاصتها أن الكلمة إذا قرأت على وجهين تكتب برسم أحدهما كما رسمت : (مالك يوم الدين . ويخادعون الله . وواعدنا موسى . تفادوهم) ونحوها بدون ألف وكلها مقروءة بإثبات الألف وحذفها . كما كتبت :

« غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ . أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ . ثَمَرَةٍ

مِّنْ أَكْمَامِهَا » بالتاء المفتوحة .

هذه عجالة واختصار لإعطاء فكرة سريعة فمن شاء التوسع فى هذا الباب فليرجع إلى إحدى المراجع المذكورة آنفاً أو إلى « مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى » .

مزايا الرسم العثمانى :

للرسم العثمانى مزايا لا تتوفر لغيره نجملها فيما يلى :

١ — للدلالة على القراءات المتنوعة فى الكلمة الواحدة قدر الإمكان . فقد لوحظ فى قاعدة الرسم أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر . فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذى هو الأصل . وإذا لم يكن فى الكلمة إلا قراءة واحدة رسمت بحرف الأصل .

٢ — إفادة المعانى المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة مثل فصل كلمة (أم) فى قوله «أم من يكون عليهم وكيلا» ووصلها فى قوله تعالى : « أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم » فإنها تكتب (أمن) . ففصل الأولى فى الكتابة للدلالة على أنها أم المنقطعة بمعنى بل ، ووصل الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك .

٣ — الدلالة على معنى خفى دقيق كزيادة الياء فى كتابة

كلمة (أيد) من قوله تعالى :

« وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ »[1] .

وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التى بنى بها السماء . ومن هذا القبيل قوله « ويدع الإنسان » بحذف الواو من (فعل يدعو) للدلالة على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير وكذلك حذفها من « وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ »[2] . للإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله .

٤ – الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الضمة واواً فى قوله « سأوريكم دار الفاسقين » ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف مثل الصلاة والزكاة إذ كتبتا (الصلوة والزكوة) ليفهم أن الألف فيهما منقلبة عن واو .

٥ – إثبات بعض اللغات الفصيحة مثل كتابة هاء التأنيث مفتوحة دلالة على لغة طئ ومثل قوله :

« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ »[3]

كتبت بحذف ياء (يأتى) للدلالة على لغة هذيل .

---

(١) الذاريات ٤٧ . (٢) الشورى ٢٤ .

(٣) هود ١٠٥ .

دستور عثمان فى كتابة المصاحف :

كان دستور عثمان فى المصاحف وهو ما تواضع عليه هؤلاء الصحابة الكتاب ، ألا يكتبوا إلا ما تحققوا أنه قرآن وعلموا أنه استقر فى العرضة الأخيرة وما أيقنوا صحته من النبى مما لم تنسخ تلاوته . وتركوا ما سوى ذلك نحو قراءة « فامضوا إلى ذكر الله » بدلا من كلمة « فاسعوا » ونحو « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » بزيادة كلمة « صالحة » . يقول الزرقانى : وكتبوا عدة مصاحف متفاوتة فى إثبات وحذف وبدل وغيرها لأنهم قصدوا اشتمالها على الأحرف السبعة ، وكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجردها من النقط والشكل مثل « فتبينوا » و « فتثبتوا » وهما قراءتان فى قوله تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » وكذلك قوله تعالى : « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » بالزاى فإن تجردها من النقط يجعلها صالحة لأن تقرأ « ننشرها » بالراء وهما قراءتان . أما الكلمات التى لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع ورودها بقراءة أخرى أيضاً فإنهم كانوا يرسمونها فى بعض المصاحف برسم يدل على قراءة وفى بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية مثل قراءة « تحتها الأنهار » و « من

تحتها الأنهار » . أما اللفظ الذى لا تختلف فيه وجوه القراءات فكانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة ، وكانوا يتحاشون أن يكتبوه بالرسمين فى مصحف واحد خشية أن يتوهم أن اللفظ نزل مكرراً أو أن يكتبوا أحد اللفظين فى الأصل والآخر فى الحاشية لئلا يتوهم أن الثانى تصحيح للأول أو أنه ترجيح فى حين أنه بلا مرجح . فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها ، حتى لا يكونوا قد أسقطوا شيئاً من قراءته أو منعوا أحداً من القراءة بأى حرف شاء على حين أنها كلها منقولة نقلا متواتراً عن النبى ﷺ ورسول الله يقول : « فأى ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا » . انتهى ملخصاً .

هل رسم المصحف توقيفى[1] ؟ :

فيها آراء ثلاث :

الأول : أنه توقيفى لا تجوز مخالفته — وهو رأى الجمهور — لأن كتاب النبى ﷺ كتبوا القرآن بهذا الرسم وأقرهم الرسول على كتابتهم . ثم جاء أبو بكر فكتب الصحف بهذا الرسم . ثم انتسخ عثمان تلك الصحف برسمها فى المصاحف ، وأقر الصحابة ما كتبه الكتاب وأبو بكر وعثمان ، وانتهى الأمر إلى التابعين

---

(١) أى بنص وارد فلا يجوز مخالفته .

وتابعى التابعين فلم يخالف أحد منهم فى هذا الرسم ، ولم يرد أن أحداً منهم فكر فى أن يستبدل به غيره حتى فى عهد ازدهار التأليف ونشاط التدوين بقى الرسم العثمانى محترماً متبعاً .

فخلاصة القول : أن الرسم العثمانى ظفر بإقرار الرسول وإجماع الصحابة ثم إجماع الأمة والأئمة المجتهدين وأجمعت المذاهب الأربعة على ذلك ، وبه قال النيسابورى والبيهقى . والأدلة التى ساقها أصحاب هذا الرأى لا تدل على تحريم كتابة القرآن بغير هذا الرسم إذ ليس فيها زجر الإثم ووعيده ولا نهى الحرام وتهديده .

الثانى : أن رسم المصحف اصطلاحى فيجوز مخالفته وهو رأى ابن خلدون ووافقه القاضى أبو بكر — لأنه لم يرد ما يفرض على الكتاب رسماً معيناً ، وهذا أمر لا يجب أن يدرك إلا بالسمع والتوقيف ، وليس فى نصوص الكتاب ولا السنة ولا إجماع الأمة ما يوجب ذلك ولا دلت عليه القياسات الشرعية وفى الرأى الأول ردود على هذا .

الثالث : أنه يجوز — بل يجب — كتابة المصحف الآن للعامة على الاصطلاحات الشائعة بينهم ولا تجوز كتابته بالرسم العثمانى كيلا يوقع فى تغيير من الجهال . ولكن يجب فى الوقت نفسه

الاحتفاظ بالرسم العثمانى كأثر نفيس عن سلفنا الصالح . وهذا رأى الشيخ عز الدين عبد السلام .

ونرى أرجحية الرأى الأول لما سبق مضافاً إليه ما يأتى :

١ – أن مصطلح الخط والكتابة فى عصرنا عرضة للتغيير والتبديل ، ومن تقديس القرآن حمايته من التغيير والتبديل فى رسمه .

٢ – أن إخضاع المصحف لمصطلحات الخط الحديثة ربما يجر إلى فتنة أشبه بالفتنة التى حدثت أيام عثمان ، فيقال رسمى خير من رسمك ، ومصحفى خير من مصحفك .

٣ – الرسم العثمانى هو الرسم العام الذى يجمع الأمة على كتابة القرآن فى كل الأعصار والأمصار فما يكون لنا أن نفرط فى أمر يجمع هذا الشتات .

انتساخ المصاحف :

وقد نسخ عثمان من مصحفه أربع نسخ أرسل منها إلى العراق والشام ومصر فاتخذها قراء الأمصار معتمداً ومرجعاً .

وقيل نسخ سبعاً وقيل ثمانية وقيل ستة . ثم أمر بما سواها من المصاحف أن تحرق (أو تخرق) ثم تدفن . وكان ذلك بأمر عثمان رضى الله عنه وإجماع الأمة بالموافقة – قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو

فى عثمان وقولكم حراق المصاحف فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ﷺ .

وفى قول آخر أن عمر بن الخطاب هو أول من بدأ جمع القرآن وليس أبو بكر وأنه كان يثبت الآية بشهادة شاهدين .

ولكن الثابت المقطوع به أن بدء الجمع كان فى خلافة أبى بكر بمشورة عمر ، وأنه تم فى خلافة عمر رضى الله عنه .

ولما كان القرآن — ومازال — يعتمد فى نقله على التلقى من صدور الرجال ثقة عن ثقة إلى النبى ﷺ ، لذلك اختار عثمان حفاظاً يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية واعتبر هذه المصاحف أصولا ثوانى مبالغة فى الأمر وتوثيقاً للقرآن ولجمع كلمة المسلمين . فكان يرسل إلى كل مصر مع مصحفه مايوافق قراءته فى الغالب . فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمصحف المدنى فى المدينة وبعث عبد الله بن السائب مع المكى إلى مكة ، والمغيرة ابن شهاب مع الشامى ، وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى ؛ وعامر بن قيس مع البصرى ثم نقل التابعون عن الصحابة وأجمعت الأمة — معصومة من الخطأ فى إجماعها — على ما فى هذه المصاحف . ثم أقبل المسلمون يجدون فى إخراج المصاحف وانتساخها . روى المسعودى أنه رفع من عسكر معاوية فى واقعة صفين نحواً من خمسمائة مصحف ولم يكن بين جمع عثمان

إلى يوم صفين سوى سبع سنوات . على أن المسعودى مؤلف أخبار يحتمل لها من كل وجه ، فروايته غير وثيقة .

أين المصاحف العثمانية ؟ :

لا يقوم بين أيدينا دليل على وجود المصاحف العثمانية الآن . وما يقال عن المصاحف الأثرية الموجودة بخزائن الكتب والآثار بمصر من أنها مصاحف مما كتب عثمان فهو عار عن الصحة ، لأن بها زخرفة ونقوشاً وضعت كعلامات للفصل بين السور ولبيان أعشار القرآن ، وقد كانت المصاحف العثمانية خالية من هذا .

أما المصحف المحفوظ بخزانة المسجد الحسينى والمنسوب إلى عثمان فهو مكتوب بالخط الكوفى القديم مع تجويف حروفه وسعة حجمه . ورسمه يوافق رسم المصحف المدنى أو الشامى حيث رسمت فيه كلمة « من يرتد » من سورة المائدة بدالين اثنين مع فك الإدغام وهو رسمها ، فمحتمل أن يكون منقولا من المصاحف العثمانية . والرأى للزرقانى .

تحسين المصاحف :

كانت الكتابة العربية أيام النبى مخالفة فى شكلها ورسمها عما هى عليه اليوم ، فلم يكن بحروفها دورانات ولم يكن عليها نقط ، وبذلك كانت تتشابه حروف كثيرة مثل الباء والتاء

والثاء والنون والياء . وكذلك الجيم والحاء والخاء . وكذلك الدال والذال وهكذا .

وكان العرب بما جبلوا عليه من فصاحة وبلاغة ومعرفة باللغة يميزون هذا الاختلاف عند النطق إن تشابهت فى الكتابة ، فلما دخل على اللسان العربى من ليس من العرب اقتضى الأمر بطبيعة الحال معالجة رسم الحروف المتشابهة منعاً للالتباس فوضعت النقط فوق الحروف . وامتدت يد التحسين إلى المصاحف مادياً وشكلياً من حيث النسخ والطبع والحجم والورق والتجليد وغير ذلك .

الاعجام :

والمقصود به تنقيط الحروف . والمعروف أن المصحف العثمانى لم يكن منقوطاً حتى تبقى الكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات . ومختلف فيما إذا كان الإعجام معروفاً من قبل الإسلام وأن المصحف ترك عمداً من غير إعجام. أو أنه لم يعرف إلا فيما بعد . على أن إعجام المصاحف لم يعرف إلا فى عهد عبد الملك بن مروان لما اختلط العرب بالعجم . وبدأ اللبس فى القراءة حتى شق على السواد من المسلمين أن يهتدوا إلى تمييز حروف المصحف وكلماته وهى غير معجمة .

فندب عبد الملك بن مروان الحجاج أن يعنى بهذا الأمر ، فكلف به نصر بن عاصم الليثى ويحيى بن يعمر العدوانى وكلاهما كفء قدير على ما ندب له ، وهما تلميذان لأبى الأسود الدؤلى ، وقد نجحا فى مهمتهما ، فأعجما المصحف لأول مرة ونقطا جميع حروفه المتشابهة ، والتزما ألا تزيد النقط فى أى حرف على ثلاث . وانتشر ذلك فى الناس فكان له أثره العظيم فى إزالة اللبس والإشكال عن المصحف . ثم ألف الحجاج بواسط كتاباً فى القراءات جمع فيه ماروى من اختلاف الناس فيما وافق الخط.

وقيل أن أبا الأسود الدؤلى أول من نقط المصحف ، وأن يحيى بن يعمر نقط مصحفاً لابن سيرين ، ويمكن الجمع بين القولين بأن أبا الأسود أول من نقط المصحف ولكن بصفة فردية . ثم تبعه ابن سيرين ، وأن عبد الملك أول من نقطه بصفة رسمية عامة شاعت وذاعت بين الناس .

شكل المصحف :

لم يكن تشكيل الحروف والكلمات كذلك معروفا عند العرب أول عهدهم . فلما دخل فى الإسلام من غير العرب وانحرفوا باللغة عن إعرابها الصحيح ، أرسل زياد والى البصرة إلى أبى الأسود الدؤلى ليجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب

لله فأبطأ عليه حتى سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى :

« وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهُ » .

قرأ « رسوله » بجر اللام فصار معناها أن الله برئ من رسوله . وحاشا لله أن يتبرأ من رسوله . فأفزع هذا اللحن الشديد أبا الأسود وقال عز وجه الله أن يبرأ من رسوله . فذهب إلى زياد وقال له أجبتك إلى ما سألت ، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة أسفله والضمة نقطة بين أجزاء الحرف ، وجعل علامة السكون نقطتين . ونهج الناس نهجه . وامتد الزمان بهم فابتكروا حتى جعلوا للحرف المشدد علامة كالقوس . ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة ، حتى جاء عبد الملك بن مروان وأراد أن يعجم المصحف ، فاضطر أن يجعل النقط للاعجام وأن يتخذ للشكل أشكالا ورسوما جديدة ، هي ما نعرفه اليوم من علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون .

وكان المسلمون فى الصدر الأول يرون كراهة خلط المصحف بما ليس فيه ولو كان نقطاً أو شكلا ، ولكن لما تغير الزمان اضطر المسلمون إلى إعجام المصحف وشكله محافظة على أداء

القرآن كما رسمه المصحف . فزال القول بكراهة الإعجام والشكل وحل محله القول بوجوبهما واستحبابهما . قال النووى فى التبيان :

« قال العلماء : ويستحب نقط المصحف وشكله ، فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيحه . وأما كراهة الشعبى والنخعى النقط فإنما كرهاه فى ذلك الزمان خوفا من التغيير فيه » . وكان عندمالك مصحف لجده كتبه إذ كتب عثمان المصحف خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر (يعنى هكذا أو نحوه ∞ ∞ ∞) معجوم الآى بالحبر . وكره إبراهيم النخعى كتابة فاتحة سورة كذا وكذا لقول ابن مسعود « لاتخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه » . قال ابن رزين : أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن . على أن الأخبار كلها تؤذن أن التعشير والتخميس وفواتح السور ورؤوس الآى من عمل الصحابة . قادهم الاجتهاد إلى عمله ، ومن كره ذلك إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمرة والصفرة تنزيهاً لكتاب الله وحتى لا تشغل القارئ عن تدبر الآيات ومعانيها .

تجزئة القرآن :

كانت المصاحف العثمانية مجردة من التجزئة ، فلما امتد

الزمان بالناس وتفننوا فى القرآن . منهم من قسمه ثلاثين جزءاً بحيث لايتبادر إلىالذهن عند سماع كلمة جزء إلاجزءاً من الثلاثين. ولعل الحكمة من هذا التقسيم تيسير ختم تلاوة المصحف فى شهر. وطبع بعضهم كل جزء فى نسخة مستقلة ، ومجموع النسخ الجامعة للقرآن كله يسمونه ربعة . ومن الناس من قسم الجزء إلى حزبين ، ومن قسم الحزب إلى أربعة أقسام وسموا كل قسم منها ربعاً .

ومن الناس من وضع كلمة خمس عند نهاية كل خمس آيات من السورة ، وكلمة عشر عند نهاية كل عشر آيات منها ، فإذا انتهت خمس آيات أخرى وضعوا كلمة خمس مرة أخرى ، وإذا تمت عشر أخرى وضعوا كلمة عشر . وهكذا حتى نهاية السورة . ومنهم من اختصرها فوضع رأس خاء بدلا من كلمة خمس ، ورأس عين بدلا من كلمة عشر . ومنهم من رمز إلى رؤوس الآى برقم عددها من السورة أو من غير رقم . كما كتب بعضهم فواتح للسور كعنوان فيه اسم السورة وعدد آياتها ومكية أو مدنية دون أن يختلط ذلك بالسورة أو يظنه أحد من القرآن .

وفى هذا كلام كثير ، بين الجواز بكراهة ، والجواز بلا كراهة.

وختاماً لهذا الفصل نقول : إن العناية بلغت بكتابة القرآن

وشكله ونقطه وتحزيبه وعده وإحصائه أن جمع الحجاج القراء والحفاظ والكتاب فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ فحسبوا فأجمعوا على أنه ٣٤٠٧٤٠ أو ٣٢٣٠١٥ على قول آخر . ثم سألهم عن نصفه فإذا به ينتهى فى سورة الكهف فى فاء « وليتلطف » . ثم سألهم عن أثلاثه فإذا الثلث الأول رأس مائة من براءة ، والثلث الثانى رأس مائة وإحدى من طسم الشعراء ، والثلث الثالث ما بقى من القرآن . ثم سألهم عن الأسباع فأخبروه بذلك . عملوه فى أربعة أشهر . أما عدد كلماته فهو ٧٧٤٣٩ كلمة .

يقول الدكتور هيكل : « . . . ومع ما أدى إليه مقتل عثمان من قيام شيع زعزعت وحدة العالم الإسلامى بعد ربع قرن من وفاة رسول الله ﷺ ، فقد ظل للجميع قرآن واحد يظلهم أجمعين ، بلغ من الحرص على العناية به أن وصلنا كاملا حتى أننا لا نجد بين النسخ الكثيرة التى لا عداد لها المنتشرة فى أنحاء العالم الإسلامى اليوم أى اختلاف » .

وإنا كمسلمين نسجلها بكل فخار أن ليس على وجه الأرض غير القرآن الكريم كتاب لبث أربعة عشر قرناً من الزمان بنص هذا مبلغ صفائه ودقته ، وصدق الله العظيم « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] .

---

(١) الحجر: ٩ .

كما كانت هجرة الرسول حداً فاصلا بين عهدين ، كذلك كانت حداً فاصلا فى القرآن الكريم بين أسلوبين . فقد تغير بالهجرة حال المسلمين وأحوال المخاطبين كما تغير موضوع الرسالة .

فأهل مكة كانوا يومذاك أهل شرك وعبادة أوثان وأهل رياسة وسيادة وعناد وغطرسة ، عقولهم فى الدين مقفلة ، وطباعهم فى الجدل جافة .

« قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُون »[1] « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُون.

(١) سورة الزخرف ٢٣ .

وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا » .

وكان الرسول فى مكة يضيق صدره وتحزن نفســه ، من المعارضة واستمرار العناد وتوالى الإيذاء لشخصه وللمسلمين وحرصه على نجاة المسلمين من قومهم . وصفه القرآن فى مكة فقال :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ »[1] وقال « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا »[2] وقال « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِين »[3] . وقال «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُون »[4] .

ولذلك نجد فى الآيات المكية كثيراً من آيات التسرية والترفيه عن الرسول بمثل قوله تعالى :

---

(١) الحجر ٩٧ .
(٢) الكهف ٦ .
(٣) الشعراء ٣ .
(٤) الأنعام ٢٣ .

« نٓ . وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وإنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[1]». «والضُّحَىٰ وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى . وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى[2]» « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ٱلَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا[3]» « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ[4]» « طه . مَا أَنْزَلْنَا

(١) القلم ١ - ٤ .
(٢) الضحى ١ - ٦ .
(٣) الشرح ١ - ٦ .
(٤) سورة الكوثر .

عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ[1]» «وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا»[2] .

أما حال المسلمين فى المدينة فهى غيرها فى مكة . فقد أصبحت المدينة ملجأ جماعة المسلمين ، وكان الرسول فيها منصوراً مظفراً تحيط به جماعة المسلمين يدافعون عن الدعوة وعنه ويفدونه بأرواحهم . وكان جمهور المخاطبين فى المدينة فى ذلك الوقت أربع طوائف :

١ ـ المهاجرون : الذين فروا بدينهم من مكة .

٢ ـ الأنصار : الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين .

٣ ـ المنافقون : وهم من لم يشأ أن يسلم من أهل المدينة فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر .

٤ ـ اليهود .

وقد خاطب القرآن المدنى هذه الطوائف كلها ، فلا بد أن

---

(١) طه ١ .　　(٢) الطور ٤٨ .

يتغير أسلوبه عن أسلوب القرآن المكى . فقد كان اليهود أرق من العرب فى بعض النواحى ، فهم أهل كتابة وأهل كتاب . كذلك انفسح المجال للتشريع الإسلامى فغاب السجع القصير من الآيات المدنية لأنه لا يناسب التشريع وإنما كان يناسب التأثير الوجدانى .

يتبين إذاً أنه ترتب على تغير أوضاع الحياة بتغير دار التنزيل تغير أسلوب الآيات وموضوعاتها ، حتى أصبح للآيات التى نزلت بمكة مميزات تميزها عن الآيات التى نزلت بالمدينة . وسميت الآيات التى نزلت بمكة وضواحيها مثل حراء والحديبية ومنى وعرفات بالآيات المكية . كما أطلق اسم المدنية على الآيات التى نزلت بالمدينة وضواحيها كبدر وأحد . وفى اعتبار آخر أن المكى هو ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها سواء كان فى المدينة وضواحيها أو غير ذلك . ويلاحظ فى المعنى الأول أنه غير ضابط ولا حاصر فيخرج منه ما نزل بغير مكة أو المدينة كقوله تعالى :

« وَكَأَيِّنْ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ »[1]

---

(١) سورة محمد ١٣ .

فقد نزلت بالطريق أثناء الهجرة . وكقوله تعالى :

« لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ »[1] .

نزلت بتبوك ، وكقوله تعالى :

« وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُون »[2] .

نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء . أما المعنى الثانى للاصطلاح فهو المشهور . وهناك معنى ثالث : هو أن المكى ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، ولكنه كذلك معنى ليس من السهولة حصره .

هذا باعتبار الآيات ، أما باعتبار السور فتعتبر السورة مكية إذا نزل أولها فى مكة قبل الهجرة وإن تخللتها آيات مدنية . وتعتبر مدنية إذا نزل أولها بعد الهجرة بالمدينة وإن تخللتها آيات مكية .

---

(١) التوبة ٤٢ . (٢) الزخرف ٤٥ .

ولمعرفة المكى والمدنى فوائد مثل تمييز الناسخ من المنسوخ إذا وردت آيتان فى موضوع واحد ، إحداهما مكية والأخرى مدنية . ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامى وتدرجه الحكيم مما يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية فى تربية الشعوب والثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً . يدل على ذلك اهتمام المسلمين به حتى ليعرفون ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها .

ولما كان بدء الوحى فى ١٧ رمضان سنة ٤١ من ميلاد الرسول ﷺ . وكان وصول النبى إلى المدينة فى هجرته فى أول ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده ﷺ (إذ كان خروجه من مكة فى ١٧ صفر من نفس العام) ثم انقطع الوحى بعد التاسع من ذى الحجة سنة ٦٣ من ميلاد الرسول الموافقة لسنة ١٠ من الهجرة ، فبناء عليه تكون مدة العهد المكى ١٣ يوم و ٥ أشهر و ١٢ سنة ، ومدة العهد المدنى ٩ أيام و ٩ أشهر و ٩ سنين .

وقد بلغ عدد آيات القرآن الكريم وفق عدد البصريين ٦٢٠٤ آية ، وعددها عند أهل الشام ٦٢٢٦ إذا اعتبرت البسملة آية و ٦٢٢٥ إذا لم تعتبر آية . وقول الكوفيين عن على بن أبى طالب أن عدد آيات المصحف ٦٢٣٦ ، وبه تأخذ جميع المصاحف

المتداولة بين أيدينا اليوم ، ولا نعلم — ولم نلاحظ — أن هناك مصاحف تأخذ بعدد أهل الشام أو البصرة مما هو متداول بين أيدى الناس فى مصر .

وتنتظم هذه الآيات ١١٤ سورة ، منها ٢٣ سورة مدنية تكون ما يزيد قليلا على $\frac{١١}{٣٠}$ من القرآن منها كثير من سور الطوال مثل سورة البقرة وآل عمران والنساء. ومجموع آيات المدنى ١٤٥٦ . وما تبقى فهو مكى تنتظمه ٩١ سورة تكون ما يقل قليلا عن $\frac{١٩}{٣٠}$ من القرآن .

مميزات المكى والمدنى :

معرفة المكى والمدنى يرجع فيه لحفظ الصحابة والتابعين ، فلم يرد عن النبى ﷺ فى ذلك شىء . وذلك لأن المسلمين فى زمانه لم يكونوا فى حاجة إلى هذا البيان فهم يشاهدون تنزيل الوحى ومكانه وزمانه وأسباب نزوله عياناً . وقد وقع خلاف فى بعض السور وإتقان فى بعض . والخلاف أظهر ما يكون فى السور المكية لأن حـــوادث مكة لم تكن بوضوح حوادث المدينة ، ولذلك فالخلاف بين المستشرقين فى السور المكية دون المدنية .

على أنه لكل من المكى والمدنى مميزات تميزه من عرفها أمكنه التمييز بينها نجملها فيما يلى :

١ ـ آيات المكى على الجملة قصار بخلاف الآيات المدنية .
دليل ذلك أن السور المدنية تزيد قليلا على ١١/٣ من القرآن مع أن عدد آياتها لا تزيد على ربع مجموع آيات القرآن . قارن مثلا جزء قد سمع (الجزء الثامن والعشرون» فهو مدنى ومجموع آياته ١١٧ آية بجزء عم (الجزء الثلاثون) وهو جزء أكثره مكى عـــدد آيات السور المكية به ٥٤٣ آية . وانظر إلى سورة الأنفال المدنية آياتها ٧٥ آية بينما سورة الشعراء المكية ٢٢٧ آية وكلتاهما أربعة أرباع من الحزب . وبالجملة قارن الآيات المدنية والآيات المكية تلحظ فرقاً ملموساً من حيث طول الآيات .

فائدة : أقصر آية فى كتاب الله « يس » وهى مكية . وأطول آية هى الآية ٢٨٢ من سورة البقرة وهى مدنية .

على أن هذا ينطبق على الغالب ولكن يوجد أحياناً من المكى ما هو أطول من المدنى .

٢ ـ خطاب الجمهور فى المدنى يغلب أن يكون بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » و« يا أهل الكتاب » بينما يمتاز المكى فى خطابه للجمهور بقوله : « يا أيها الناس » و« يابنى آدم » . ولم يرد أبداً فى الآيات المكية قول : « يا أيها الذين آمنوا » بينما ورد فى المدنى سبع مرات قوله « يا أيها الناس » وهى :

(١) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ — في البقرة

(٢) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا — في البقرة

(٣) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ — في النساء

(٤) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ — في النساء

(٥) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ — في النساء

(٦) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ — في النساء

(٧) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى — في الحجرات

٣ ـ معظم ما جاء فى الآيات المكية كان من المقصد الأول للدين وهو التوحيد وإقامة البراهين على وجود الله ووصف يوم الدين والحث على مكارم الأخلاق وضرب الأمثال بالأمم الماضية مما يخاطب به أهل الشرك . أما الآيات المدنية ففيها التشريع التفصيلى والحدود والإذن بالجهاد وبيان أحكامه .

٤ ـ كل ما أوله حروف تهجى مثل الٓمٓ ـ الٓرٓ ـ ق . فهى مكى ما عدا سورتى البقرة وآل عمران وفى الرعد خلاف . وفى القرآن الكريم تسع وعشرون سورة تبدأ بحروف تهجى منها الثلاث سالفة الذكر وست وعشرون سورة مكية .

٥ ـ كل ما فى القرآن من ذكر الأمم الماضية وقصص الأنبياء فهو مكى ، لأن القرآن فى مخاطبته للمشركين فى مكة اعتمد على الأدلة الفطرية التى لا تحتاج إلى فلسفة فى إقناعهم .

٦ ـ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية ما عدا سورة البقرة فهى مدنية .

٧ ـ كل سورة فيها سجدة فهى مكية .

٨ ـ أكثر سور المفصل مكى . وهى السور الأخيرة من القرآن

الكريم مبتدأة بالحجرات . سميت بالمفصل لكثرة الفصل بين السور فيها لقصرها .

٩ – كل سورة فيها وصف المنافقين وذكرهم فهى مدنية ، ما عدا سورة العنكبوت فهى مكية ورد فيها الآية (١١) عن المنافقين هى قوله تعالى :

« وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ » .

إلا أن هذه الآية بالذات مدنية وإن جاء ترتيبها فى سورة مكية .

١٠ – كل سورة فيها كلمة « كلا » فهى مكية مثل قوله تعالى :

« كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ » .

١١ – جاء القسم فى القرآن الكريم فاتحة لتسع عشرة سورة مكية نحو : والصافات . والذاريات . والضحى . والعاديات . والعصر . . ليأتى العرب على ما ألفوا من أساليب ويأتى القسم :

(١) لتنبيه أذهان السامعين .
(٢) لتعظيم المقسم به .
(٣) لتنبيه الأذهان إلى وحدانية الله .
(٤) لإدخال التسلية على نفس الرسول .
(٥) للابتعاد عن الجدل .

* * *

الآيــة والسـورة

معنى الآية :

لها عدة معان لغوية :

١ — فالآية العلامة : ومنه قوله تعالى :

«إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ» .

٢ — والآية الجماعة : يقال خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم .

٣ — والآية المعجزة : لأنها يعجز البشر عن الإتيان بمثلها .

ومنه قوله :

«سَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّن آيَةٍ بَيِّنَةٍ» .

٤ — الآية العبرة : ومنه قوله : «إِن فى ذَلِكَ لَآيَةً» .

٥ — الآية الأمر العجيب : ومنه قوله تعالى :

« وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً » .

٦ – الآية الدليل والبرهان : ومنه قوله تعالى :

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ ، وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » .

والمناسبة بين المعنى الاصطلاحي للآية والمعانى اللغوية السالفة أن الآية معجزة ولو بانضمامها إلى غيرها وهى علامة على صدق من جاء بها . وهى عبرة لمن أراد أن يعتبر ، وهى من الأمور العجيبة لمكانها من السمو والإعجاز ، وهى جماعة من حــــروف القرآن وطائفة منه . وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلى قدرة الله وصدق الرسول .

معنى السورة :

١ – يقال لما ارتفع من الأرض سور . والتسور : هو الارتفاع من منزلة إلى منزلة ومنه قوله تعالى :

« وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَــوَّرُوا ٱلْمِحْرَابِ »[1] .

---

(١) ص ٢١ .

أى تسلقوا المحراب . فسميت السورة سورة لشرفها وارتفاع قـــدرها .

٢ ـــ وقيل لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده كسور البناء .

٣ ـــ وهمز بعضهم السورة من القرآن فقـــالوا « سؤرة » وتأويلها القطعة التى أفضلت من القرآن عما سواها ، وذلك أن سؤر كل شىء النفثة منه تبقى بعد الذى يؤخذ منه ، ولذلك سمى ما يبقى فى الإناء بعد الشرب سؤراً ، ثم خففت الهمزة فأبدلت واواً فصارت سورة .

٤ ـــ وقيل لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة سورة .

أسماء السور :

وقد سميت سور القرآن بمفتتحاتها وما يذكر فى أوائلها مثل الأنفال أولها : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ »

والإسراء أولها : « سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً »

وطه أولها :

« طه مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ » .

ولكن فى القرآن خمس وثلاثون سورة شذت عن هذه القاعدة فسميت بأسماء أشياء لم تذكر فى أوائلها مثل سورة البقرة لم تذكر

قصة البقرة ولا لفظها إلا بعد ست وثلاثين آية . وقد جاء ذكر آل عمران فى سورة آل عمران بعد ٣٢ آية وذكرت المائدة فى سورة المائدة بعد عشر آيات ومائة أى قرب آخر السورة .

ويعزى هذا إلى أحد تعليلين ظنيين :

الأول : أن قصة البقرة فى سورة البقرة وقصة آل عمران فى سورة آل عمران مثلا هى وإن لم تكن أول هذه السور تلاوة وترتيباً ، إلا أنها أولها نزولا اعتباراً بأكثر السور وذلك لأن القرآن لم يرتب حسب نزوله لا فى سوره ولا فى آياته .

الثانى : أن تكون السورة انفردت بتفسير الواقعة ذات الاسم المنسوب إلى السورة مثل البقرة لم تذكر قصتها إلا فى سورة البقرة ، وكذلك قصة المائدة لم تذكر إلا فى سورة المائدة ، وقصة يوسف لم تذكر إلا فى قصة يوسف .

ترتيب الآيات :

اتفق المؤرخون على أن ترتيب الآيات فى السور كان واحداً فى كل المصاحف التى جمعت قبل وفاة الرسول وعقب وفاته . ذلك أن جبريل عليه السلام كان يقف النبى على موضع الآية من السورة ، فاتساق الآيات فى السور عن محمد ﷺ عن الله تبارك وتعالى يدل على ذلك قوله تعالى :

«يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . نِّصْفَهُ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً»[1] .

وهى من الآيات التى نزلت فى الفترة الأولى من البعث ، فطالبة النبى بقيام الليل مرتلا للقرآن يرجح أنه لم يكن آيات مبعثرة من غير ترتيب ، مما يدل على أن الآيات رتبت فى حياة النبى ﷺ .

ترتيب السور :

أما ترتيب السور والابتداء بالفاتحة فالبقرة فآل عمران وهكذا فذلك ما اختلف فيه . فقد اختلف السلف فى ترتيب سور القرآن : فمنهم من كتبها على تاريخ نزولها وقدم المكى على المدنى ، ومنهم من جعل فى أول مصحفه الفاتحة على اختلاف شديد . ويحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هو عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . ومن المؤكد أن مصحف عثمان الذى كتبه زيد ورفاقه كان على هذا الترتيب بالضبط سورة بسورة وآية بآية .

(١) المزمل ١ - ٤ .

ومما يدلنا على أنه ليس من الواجب إثبات القرآن فى المصاحف على تاريخ النزول ، ما صح وثبت من أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السور المكية أو تنزل فى مكة فتوضع فى السورة المدنية . وكذلك قول عائشة رضى الله عنها « وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده » تعنى بالمدينة . وقد قدمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما بمكة . ولو ألفوه على تاريخ النزول لانتقض ترتيب الآيات .

وقال قوم من أهل العلم إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبى ﷺ ، وإن جبريل كان يقف النبى على موضع السورة والآية . فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف عن محمد ﷺ عن رب العالمين وأنه كان يقول ضعوا السورة موضع كذا وكذا من القرآن . أما ما روى عن اختلاف ترتيب السور عن هذا الترتيب فى مصحف أبى وابن مسعود فإنما كان قبل العرض الأخير الذى عرضه الرسول صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام مرتين قبل اختيار النبى الرفيق الأعلى الذى قرأه عليه زيد بن ثابت وأن النبى رتب لهم السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . قال مالك :

إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من الرسول عليه الصلاة والسلام .

وسواء كان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهادياً ، فإنه ينبغى احترامه ، لا سيما فى كتابة المصحف لأنه إجماع عن الصحابة والإجماع حجة ، ولأن خلافه يجر إلى فتنة ودرء الفتنة واجب . أما ترتيب السور فى التلاوة فليس بواجب إنما هو مندوب .

أقسام السور :

قسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام :

١ — **الطوال :** سبع سور وهى : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف . واختلف فى السابعة أهى الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة أم هى سورة يونس .

٢ — **المئون :** هى السور التى تزيد آياتها عن مائة أو تقاربها .

٣ — **المثانى :** هى التى تلى المئين فى عدد الآيات .

٤ — **المفصل :** وهو أواخر القرآن ، واختلف فى تعيين أوله على اثنى عشر قولا قيل أوله « ق » وقال النووى « الحجرات » وقيل غير ذلك . والمفصل ثلاثة أقسام : طوال المفصل وهو من الحجرات إلى البروج ، وأواسط المفصل وهو من «الطارق» إلى «لم يكن» ، وقصار المفصل وهو من «إذا زلزلت» إلى آخر القرآن .

رجعنا إلى كثير من المراجع فلم نجد الآراء اختلفت فى شىء اختلافها فى هذا الباب ، حتى ليعسر جداً أن يقتنع من يستعرض هذه الآراء برأى بالذات دون الآراء الأخرى — وكل صاحب رأى يدعم رأيه بحجج منها المعقول المقبول ومنها المصنوع المتكلف ، ونظراً لأن الوصول إلى رأى مؤكد أمر غير هين ونظراً لحرص على ألا تزيد هذه الرسالة عن هذا القدر وخشية الإملال رأينا أن نقتصر هنا على سرد أهم هذه الآراء دون مناقشتها مع ترجيح الرأى الأول دون قطع به ، محيلين من أراد التوسع فى هذا الموضوع إلى مراجعه ، مثل الإتقان للسيوطى ومناهل العرفان للزرقانى واللهجات العربيــة للدكتور إبراهيم أنيس ومقدمة الجامع لأحكام القرآن للقرطبى وإعجاز القرآن للرافعى.

وسبب ترجيح الأول عندنا ، هو بساطته ، وإمكان فهمه بسهولة دون تحميل الألفاظ أكثر مما تحتمل ، بخلاف الآراء

الأخرى التى لا نتصور أن يفهمها العرب بسهولة وتتطرق إلى أذهانهم من قوله ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » . وقد ورد فى معنى الأحرف السبعة أكثر من خمس وثلاثين قولا نذكر منها سبعاً :

أولا – كانت جزيرة العرب فى الجاهلية مكونة من وحدات منعزلة متمثلة فى قبائلها . وقد نشأت اللهجات العربية القديمة نتيجة انعزال تلك القبائل بعضها عن بعض وتمسكها بتقاليدها . كذلك نشوب الغارات بين القبائل يدعو إلى التفرقة بين المرء وأهله ويبعد الأطفال عن رعاية آبائهم ، مما ساعد على نمو التطورات اللغوية . فإذا مر جيل أو جيلان رأينا تلك التطورات التى لم تكن فى بادئ الأمر إلا أخطاء أطفال لم تصلح فى حينها قد أصبحت فيما بعد عنصراً صحيحاً معترفاً بين المتكلمين بهذه اللهجة . فلما دعت الحاجة إلى اتصال تلك القبائل فى مواسم الحج قبل الإسلام وإلى إقامة الأسواق للتجارة واتخاذها مواسم ثقافية ، كان لابد من وسيلة للتفاهم ، فكان على كل خطيب يريد أن يعجب السامعين أن يتحاشى تلك الصفات الخاصة التى تتصل بلهجة بالذات وأن يتحدث بلغة تواضعوا عليها وألفوها . وصارت اللغة النموذجية التى نشأت فى مكة هى لغة الشعر والخطابة

والأمور الجدية ، هذا إلى جوار اللهجات الأخرى الشائعة بين العامة فى مختلف القبائل والتى لا يعرفون غيرها .

فلما جاء الإسلام أراد أن يتألف قلوب العامة والخاصة معاً فسمح بأن يقرأ القرآن الكريم ببعض تلك الصفات رغم أنه نزل بلجهة موحدة تيسيراً للعامة وتأليفاً لقلوبهم . وهذا هو المقصود بقوله ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » وليست هـــذه الحروف السبعة مقصورة على اللهجات العربية بل تشمل جميع لهجات المسلمين . فإذا قرأ الهندى أو التركى المسلم القرآن ببعض الخلافات الصوتية فى نطقه وجب ألا ننكر عليه قراءته ، فهى غاية جهده ولا يقدر على غيرها . وجميع الروايات السابقة لحديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » تؤيد أن النبى ﷺ لم يرد به إلا أن يمنع الناس من القدح فى قراءة غيرهم .

أما الناحية العددية فى الحديث فليس المقصود بها حقيقة العدد سبعة بل المراد مجرد التعدد . وهو ما ينسجم مع العقلية السامية ، لأن العدد سبعة فى التعابير السامية يعبر عن التعدد والكثرة . ويستعمل العرب لفظ السبعة والسبعين والسبعمائة ؛ لا يريدون بها حقيقة العدد وإنما يريدون الكثرة والمبالغة ومثل ذلك فى القرآن :

« كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ » و « إِنْ

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » .

وبهذا الرأى أخذ القاضى عياض :

ثانياً — سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة مثل :

« انظُرونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ » أمهلونا — أخرونا — ارقبونا (بدلا من أنظرونا) » ومثل :

« كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ »

— سعوا فيه— مروا فيه . وهو رأى أكثر أهل العلم . مثل سفيان بن عيينة والطبرى والطحاوى .

ثالثاً : الأحرف السبعة هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها يمنها ونزارها . وقد أوتى ﷺ جوامع الكلم . وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن ، بعضه بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن . . الخ . إذ أن بعضه لا كله نزل بسبع لغات ، قال تعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »

ولم يقل قرشياً ، مما يدل على أنه نزل بلغات العرب كلها لا قريش وحدها .

رابعا : اللغات السبع فى مضر لقول عثمان : « نزل القرآن بلغة مضر » .

خامساً : الأحرف السبع هى معانى الكتاب وهى :

١ — أمر ٢ — نهى ٣ — وعـد ٤ — وعيـد
٥ — قصص ٦ — مجادلة ٧ — امثال .

سادساً : مذهب ابن قتيبة والقاضى ابن الطيب أن الأحرف السبعة هى وجوه الاختلاف فى القراءة وهى :

١ — ما تتغير حركته و لا يزول معناه مثل :

« هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » .

٢ — مالا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب مثل :

«رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» و« بَاعَدَ بين أسفارنا » ومثل « أَفَمَنْ أَسَّسَ » و « أفمن أُسِّسَ »ومثل فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ » و « فَعَمِيَتْ عليكم » ومثل « فانظر ماذا تَرَى » و « فانظر ماذا تُرَى »

٣ — ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف مثل :

«ننشزها—ننشرها»ومثل«ماتُنَزَّلُ الملائكة»و«ماتَنَزَّلُ الملائكة » .

٤ – ما تتغير صورته ويبقى معناه مثل :

« كالْعِهْنِ ٱلْمَنْفُوشِ » . « كالصوف المنفوش»

٥ – ما تتغير صورته ومعناه مثل : « وطلع منضود – وطلح منضود » .

٦ – التقديم والتأخير مثل :

« وَجَاءتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ »

« وجاءت سكرة الحق بالموت » .

٧ – الزيادة والنقصان مثل : « تسع وتسعون نعجة أنثى – وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين » .

وذهب ابن الجزرى مذهباً قريباً جداً من هذا ويتفق معه فى أكثر بنوده .

سابعاً : مذهب الرازى وهو المختار عند الزرقانى ، أن الكلام لا يخرج عن سبة أحرف فى الاختلاف :

١ – اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث مثل : « لأماناتهم – لأمانتهم » .

٢ – اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر مثل : « باعَدَ بين أسفارنا – بَعِّدَ بين أسفارنا » .

٣ ـ اختلاف وجوه الإعراب مثل : « ولا يضارٌ كاتب ولا شهيد ـ ولا يضارُ كاتب ولا شهيد » .

٤ ـ الاختلاف بالنقص والزيادة .

٥ ـ الاختلاف بالتقديم والتأخير .

٦ ـ الاختلاف بالإبدال مثل : «طلح منضود ـ طلع منضود » .

٧ ـ اختلاف اللهجات ، كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم . . الخ .

وهذا المذهب قريب من سابقه . قال ابن حجر فى هذا عن الرازى : « وقد أخذ كلام ابن قتيبة ونقحه » .

أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف :

روى حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، وصح من طرق مختلفة عن واحد وعشرين من الصحابة ، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وابن عباس وأبى بن كعب وعبد الرحمن ابن عوف وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل وأنس وحذيفة .

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف :

١ ـ التيسير على الأمة الإسلامية عموماً ، والعرب الذين شوفهوا بالقرآن خصوصاً ، لما بين قبائلهم من اختلاف فى اللهجات ونبرات الأصوات وطريقة الأداء وشهرة بعض الألفاظ فى بعض المدلولات .

٢ ــ جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسان واحد يوحد بينها ، وهـو لسان قريش الذى نزل به القرآن والذى تضمن مختارات كثيرة من ألسنة القبائل الأخرى . وعلى هذه السياسة الرشيدة نزل القرآن على سبعة أحرف يصطفى ما شاء من لغات القبائل العربية .

٣ ــ بيان حكم من الأحكام : كقوله تعالى فى كفارة اليمين :

« فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ »

وجاء فى قراءة « أو تحرير رقبة مؤمنة » فتبين بها شرط الإيمان فى الرقبة المعتوقة كفارة يمين .

٤ ــ الجمع بين حكمين مختلفين بمجموع القراءتين : كقوله تعالى :

« فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ » .

قـرئت (يَطْهُرْنَ) بالتخفيف وقـرئت (يَطَّهَّرْنَ) بالتشديد وهو يفيد وجوب المبالغة فى طهر النساء من الحيض ، ولا يفيد التخفيف هذه المبالغة . فمجموع القراءتين يفيد أن

الحائض لا يقربها زوجها حتى ينقطع الحيض وأنه لا يقربها إلا إن بالغت في الطهر فاغتسلت .

٥ - الدلالة على حكمين شرعيين في حالين مختلفين : كقوله تعالى :

« فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ »[1] .

قرئ بنصب لفظ (أرجلكم) وقرئ بجرها . فالنصب يعني العطف على لفظ وجوهكم فهو يفيد طلب غسلها ، أما الجر فيعني العطف على لفظ رؤوسكم فيفيد طلب مسحها . وقد بين الرسول أن المسح يكون للابس الخف وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخف .

٦ - رفع توهم ما ليس مراداً : كقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ »[2] .

---

(١) سورة المائدة ٦ .　　(٢) سورة الجمعة ٩ .

وقرئ (فامضوا) فالقراءة الأولى توهم وجوب السرعة في المشي إلى الصلاة ، ولكن القراءة الثانية ترفع هذا الوهم .

٧ – بيان لفظ مبهم : نحو قوله :

«وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ٱلْمَنْفُوشِ» .

وقرئ «كالصوف المنفوش» .

* * *

الناسخ والمنسوخ

النسخ : هو رفع حكم شرعي سابق بنص لاحق مع التراخي بينهما أي أنه يكون بين الناسخ والمنسوخ زمن يكون المنسوخ ثابتاً مقرراً بحيث لو لم يكن النص الناسخ لاستمر العمل بالسابق .

ويلزم التفريق بين النسخ والتخصيص ، فالتخصيص هو إرادة الخصوص من اللفظ العام من أول الأمر كآية :

«ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . . »[1] .

المقصود هنا الحرائر فقط بدليل الآية المخصصة لها :

«فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ»[2] .

(١) سورة النور ٢. (٢) سورة النساء ٢٥ .

وأنكر قوم دعوى النسخ فقالوا إن كل ما يسمى نسخا إنما هو تخصيص لعموم الحكم أو بيان لتوقيته ، فليس النزاع فى إطلاق لفظ النسخ – فهذا لا خلاف فيه – إنما النزاع فى ورود نص على خلاف حكم سبق . فلفظ النسخ موجود فى القرآن ولكنهم يرون أن معناه نسخ الشرائع والديانات القديمة لا نسخ حكم بإثبات غيره وأنه لايوجد فى النصوص القرآنية . أحكام منقوضة ولا مؤقتة . وذهبوا إلى أن سياق الآيات يدل على أن المراد بآية « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » هو نسخ الشرائع القديمة وأن النسيان هو نسيان الأجيال لها ، وأن الذى هو خير منها أو مثلها هو الذى أنزله له الله على رسله من الشرائع التى تمحو ما قبلها والقرآن على هذا خير مما قبله[1] .

النسخ فى الشرائع :

والنسخ واقع فى كل شريعة بالنسبة لما قبلها ، وفى الشريعة الواحدة . فالشريعة الموسوية نسخت ما قبلها ، وشريعة عيسى عليه السلام نسخت شريعة موسى ، ولكن النسخ لم يتناول لب

(١) النسخ فى الشريعة الإسلامية

هذه الشرائع ، فهى متحدة فى جملة مراميها الخلقية وتوحيد الله .
ولذلك ذكر الله شرائع النبيين على أنها واحدة لا تنافر بينها ، بالنسبة لأصولها ومراميها الكلية فقال تعالى :

«شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ»[1].

حتى إذا صقلت النفس الإنسانية بتجارب الأحقاب ونضج العقل البشرى جاءت شريعة الإسلام كلية فى أكثر أحكامها فى شئون الهداية والاجتماع ، مخاطبة لكل الأجيال اللاحقة ، صالحة لكل زمان ومكان .

وفى الشريعة الإسلامية ناسخ ومنسوخ . وكانت الأحكام المنسوخة مناسبة فى أوقاتها ، حتى إذا زال ما يقتضى وجودها جاءت الأحكام المحكمة[2] . فالنسخ لا يجوز بعد وفاة الرسول

(١) سورة الشورى ١٣ (٢) المحكم من الآيات ما ليس منسوخاً ولا متشابهاً .

ﷺ ، وبوفاته صارت آيات القرآن كلها محكمة ثابتة فى عنق الأجيال إلى يوم الدين . ويرجع فى معرفة النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله أو عن صحابى يقول آية كذا نسخت كذا . ولا يعتمد فى هذا المجال قول عوام المفسرين أوالمجتهدين بالرأى أو الاجتهاد عن غير نقل صحيح .

وتتضح أهمية معرفة الناسخ والمنسوخ من أنه لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ .

الحكمة فى جواز النسخ :

والحكمة فى جواز النسخ هى التيسير على الأمة ، ولأن النسخ علاج للجماعة الإسلامية فى عصرها الأول . ولم يثبت النسخ قط فى الكليات وإنما جاء فى بعض التفصيلات الجزئية ، ولذلك جاء النسخ بعد الهجرة عندما أخذ النبى ﷺ فى إنشاء الدولة الإسلامية ، ولأن الذى نزل بمكة إنما كان قواعد كلية وهى غير قابلة للنسخ .

وقد بعث النبى ﷺ إلى قوم غير ذى شريعة ولا منهاج ثابت . فلو نزلت عليهم الشريعة بتكاليفها دفعة واحدة ما أطاقوها ولنفروا منها ، فجاءت شيئاً فشيئاً ، حتى إذا أخبتت قلوبهم لله وما نزل من الحق خوطبوا بالشريعة كلها فحرمت أشياء كانت مباحة وكلفوا أموراً لم يكونوا مكلفيها من قبل .

مثال ذلك – أن الخمر كانت من مفاخر العرب ، فكان لابد للإسلام أن يتركهم عليها حتى يستأنسوا بروح الإسلام ، فيعرفوا ما في الخمر من مآثم وكان القرآن يستدرجهم إلى التحريم شيئاً فشيئاً فقال :

«وَلَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ[1]» . ثم قال

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا »[2] .

فقوله : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ . . » يدل على أن المسلمين بدأوا يفكرون ويسألون فيها ، حتى تنادى عقلاؤهم بمآثمها وقال عمر : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزل قوله تعالى يحرمها تحريماً قاطعاً :

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ

(١) سورة النساء ٤٣ . (٢) سورة البقرة ٢١٩ .

وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »[1] .

قالوا بقلوبهم قبل ألسنتهم : انتهينا يا رسول الله .

ما ينسخ القرآن :

للعلماء فى هذا ثلاثة آراء :

١ — لا ينسخ القرآن إلا قرآن مثله لقوله تعالى

« وإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ[2] » .

وقوله : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَو نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا »[3] .

(١)المائدة ٩٠ — ٩١ . (٢) النحل ١٠١ . (٣) سورة البقرة ١٠٦ .

ولا يكون مثل القرآن وخيراً منه إلا قرآن . فلا ينسخ القرآن بالسنة . وإليه ذهب الشافعي واستدل بقوله تعالى :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » .

ومعنى هذا أنه لا يجوز للرسول (أى للسنة) أن تنسخ شيئاً من القرآن — ولكن مع هذا يقول الشافعي رضى الله عنه إن السنة هى التى تبين الناسخ من المنسوخ فى القرآن .

٢ — وقيل بل ينسخ القرآن بالقرآن وبالسنة أيضاً لأنها كذلك من عند الله لقوله تعالى :

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ »[١]

٣ — وقيل إذا كانت السنة بأمر الله من طريق الوحى

---

(١) سورة النجم ٣ .

نسخت ، وإن كانت باجتهاد الرسول فلا تنسخ .

قال الشافعي : حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضد لها ، وحيث وقع نسخ بالقرآن فمعه سنة عاضدة له ، ليتبين توافق القرآن بالسنة .

ما يقع فيه النسخ :

النسخ لا يقع إلا فى الأوامر والنواهى ، فلايقع فى الأخبار كقصص الأنبياء ، ولا فى الوعد والوعيد كآيات ذكر الجنة والنار ، ولا فى العقائد كوجود الله ورسالات الرسل ولا فى المبادئ الكلية الإسلامية كوجوب التخلق بالأخلاق الفاضلة . وإنما يقع فقط فى الأحكام الفرعية العملية ، كأحكام القتال والحدود والميراث.

أنواع النسخ :

النسخ على ثلاثة أنواع :

١ ــ ما نسخ تلاوته وحكمه معاً كقول عائشة : كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات . وذهب منكرو النسخ إلى أن هذا الحديث ليس حجة فى الموضوع ، لأن الذى ينزل على النبى قد يكون قرآنا وقد يكون حديثاً وكله من عند الله . عن المقداد بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه » ثلاثاً .

٢ ــ ما نسخ حكمه دون تلاوته وقد عد منه السيوطى عشرين موضعاً فى القرآن سيأتى ذكرها بعد . والحكمة من رفع الحكم مع بقاء التلاوة تتبين من وجهين :

(ا) أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به يتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة .

(ب) أن النسخ غالباً يكون للتخفيف ، فأبقيت التلاوة تذكيراً للنعمة ورفع المشقة .

٣ ــ ما نسخ تلاوته دون حكمه ــ ومثاله آية الرجم ، فعن أمامة بن سهل أن خالته قالت : لقد قرأ لنا رسول الله ﷺ آية الرجم « الشيخ والشيخة فأرجموها البتة بما قضيا من اللذة » . وعن أبى موسى الأشعرى قال : نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها « إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .

وقد أنكر قوم هذا النوع من النسخ وهو الأرجح ، وقالوا : أنه لا مبرر لهذا . وأنه لو صح هذا لرأينا كثيراً من الرواة يحفظونه كما حفظوا الأحاديث المتواترة والمشهورة فإن القرآن أولى بالحفظ . ويرى القاضى أبو بكر أن الروايات القائلة

بوجود هذا النسخ روايات آحاد لا يصح التعويل عليها . كما قالت طائفة أن الحكم تابع للتلاوة فلا يجوز أن يرتفع الأصل ويبقى التابع .

مواضع النسخ فى القرآن :

ذكر السيوطى فى الإتقان عشرين موضعاً فى القرآن الكريم يرى حدوث النسخ فيها قال :

فمن البقرة قوله تعالى :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ[1] .. »

منسوخة قيل بآية المواريث وقيل بحديث : ألا وصية لوارث ، وقيل بالإجماع . حكاه ابن العربى .

وقوله تعالى :

« وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ »[2]

قيل منسوخة بقوله :

« فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ »[3] .

وقيل محكمة ولا مقدرة .

---

(١) آية ١٨٠ . (٢) آية ١٨٤ . (٣) آية ١٨٥ .

وقوله :

«أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ»[1] . ناسخة لقوله :

«كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ»[2]

لأن مقتضاها الموافقة فيما كان عليهم من تحريم الأكل والوطء بعد النوم . ذكره ابن العربي . وحكى قولا آخر أنه نسخ لما كان بالسنة .

وقوله تعالى :

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ..»[3]

منسوخة بقوله : «وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ..»[4] .

أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة . وقوله تعالى :

«وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُون أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى ٱلْحَوْلِ»[5] .

---

(١) آية ١٨٧ . (٢) آية ١٨٣ . (٣) آية ٢١٧ .
(٤) التوبة ٣٦ . (٥) آية ٢٤٠ .

منسوخة بآية :

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً »[1]

والوصية منسوخة بالميراث . والسكنى ثابتة عند قوم منسوخة عند آخرين بحديث ولا سكنى . وقوله تعالى :

« وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللهُ »[2] منسوخة بقوله بعده :

« لَا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا »[3]

ومن آل عمران قوله تعالى :

« ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ[4] » قيل إنه منسوخ بقوله :

« فَاتَّقُوا ٱللهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ »[5]

وقيل لا ، بل هو محكم ، وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية .

(١) آية ٢٣٤ . (٢) آية ٢٨٤ (٣) آية ٢٨٦ .
(٤) آية ١٠٢ . (٥) سورة التغابن ١٦ .

ومن النساء قوله تعالى :

«وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُم»(١)

منسوخة بقوله :

«وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فى كِتَابِ ٱللَّهِ(٢)» وقوله تعالى :

«وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً»(٣) .

قيل منسوخة ، وقيل لا ، ولكن تهاون الناس فى العمل بها .

وقوله تعالى : « وَٱللَّاتِى يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ »(٤)

منسوخة بآية النور .

ومن المائدة قوله تعالى :

«وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ..(٥)»

---

(١) آية ٣٣ . (٢) الأنفال ٧٥ . (٣) آية ٨ . (٤) آية ١٥ . (٥) آية ٢ .

منسوخة بإباحة القتال فيه . وقوله تعالى :

« فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »[1] . منسوخة بقوله :

« وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ »[2] .

وقوله تعالى : « وَآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ »[3]

منسوخ بقوله : « وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنْكُمْ » .

ومن الأنفال قوله تعالى :

« إِن يَكُنْ مِّنْكُم عِشْرُونَ صَابِرُونَ » ..[4]

منسوخة بالآية بعدها .

ومن براءة قوله تعالى :

« ٱنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً ...[5] » منسوخة بآيات العذر

وقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ »[6]

(١) آية ٤٢ . (٢) المائدة ٤٩ . (٣) آية ١٠٦ . (٤) آية ٦٥ .
(٥) آية ٤١ . (٦) النور ٦١ .

الآية وقوله : « لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ . . »[1]

الآيتين . وبقوله :

« وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً »[2] .

ومن النور قوله تعالى :

«ٱلزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً . . »[3]

منسوخة بقوله :

«وَأَنْكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ . . »[4]

وقوله تعالى :

«لِيَسْتَأْذِنْكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم »[5]

قيل منسوخة ، وقيل لا ، ولكن تهاون الناس فى العمل بها .

ومن الأحزاب قوله تعالى :

«لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ

---

(١) التوبة ٩١-٩٢ . (٢) التوبة ١٢٢ . (٣) آية ٣ .
(٤) آية ٣٢ . (٥) آية ٥٨ .

بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ »[1] منسوخة بقوله :

« إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ »[2] الآية .

ومن المجادلة قوله تعالى :

« إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً »[3] . منسوخة بالآية بعدها .

« أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَات . . »[4] .

ومن الممتحنة قوله تعالى :

« فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا »[5] .

---

(١) آية ٥٢ .
(٢) آية ٥٠ .
(٣) آية ١٢ .
(٤) آية ١٣ .
(٥) آية ١١ .

قيل منسوخة بآية السيف وقيل ، بآية الغنيمة ، وقيل محكم .

ومن المزمل قوله :

«قُمِ ٱللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا»[1] .

منسوخ بآخر السورة ، ثم نسخ الآخر بالصلوات الخمس .

فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة على خلاف فى بعضها ، لا يصح دعوى النسخ فى غيرها . والأصح فى آية الاستئذان والقسمة الإحكام ، فصارت تسعة عشر ؛ ويضم إليها قوله تعالى :

«فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ»[2] .

على رأى ابن عباس أنها منسوخة بقوله :

«فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ»[3] .

الآية . فتمت عشرون .اهـ .

---

(١) المزمل ٢ .

(٢) البقرة ١١٥ .

(٣) البقرة ١٤٤ .

الحروف المفردة في أوائل السور

قال الأستاذ حسن البنا فى تفسيره لسورة البقرة :

« آلم » وما شابهها فى أوئل السور القرآنية .

كثرت أقوال المفسرين فى ذلك ، وأحقها بالنظر والتقدير آراء ثلاثة :

إنها للفت النظر للاستماع للقرآن حين يتلى فهى أداة تنبيه ، وخاصة للمشركين الذين كانوا يعلمون تمام العلم ، أن محمداً ﷺ أمى لم يقرأ ولم يكتب ، قبل أن يوحى إليه هذا القرآن ؛ فنطقه بهذه الحروف على الهيئة التى لا يحذقها إلا القراء والكاتبون أمر يستدعى الانتباه ويستلفت النظر .

أو أنها إشارة إلى الإعجاز كأنه يقول لهم : إن هذه الألفاظ والجمل والعبارات والآيات قد ركبت من هذه الحروف البسيطة التى تعرفونها جميعاً ، ومع ذلك فقد عجزتم عن الإتيان بمثل هذا التركيب ، مع أن هذه هى مادته الأولية بين أيديكم ، فلا

مندوحة لكم بعد هذا من الإقرار بأن هذا الكتاب ، المركب هذا التركيب ، من عند الله لا من صنع البشر .

أو أنهما إشارة إلى فضل الكتابة وسمو منزلتها والتفاؤل بأنه كما كانت معرفة البشر للكتابة إيذاناً بانتقالهم من طور إلى طور فى مدارج الرقى والكمال ، فكذلك الاهتداء بهذه الرسالة سيكون انتقالا جديداً إلى درجة أعلى وأكمل فى مدارج الحضارة الإنسانية والرقى الاجتماعى . وقد جاء القرآن حريصاً على إبراز هذا المعنى ، حتى كانت أول سورة أنزلت منه فى أرجح الأقوال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

وكل ما عدا هذه الآراء الثلاثة من أقوال المفسرين ظن لا يغنى عن الحق شيئاً . ومن طرائف ما ذهب إليه بعضهم فى ذلك استخلاصه هذا التركيب من هذه الحروف فى أوائل السور بعد حذف المكرر منها « نص حكيم قاطع له سر » كأنه يريد أن يقول إنهما وصف للقرآن ، ولا دليل على هذا القول ولا سند له . اه .

آداب قارئ القرآن وحامله

أحيط القرآن الكريم بهالة من الإجلال والتقديس ؛ حتى وصفه الله تبارك وتعالى بأنهُ كتاب مكنون ، وحكم ألا يمسه إلا المطهرون ، وأقسم على ذلك فقال :

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ »[1] .

وحتى نهى الرسول ﷺ أن يسافر به إلى أرض العدو إذا خيف وقوع المصحف في أيديهم . وأفتى العلماء بكفر من رمى به في قاذورة ، وبحرمة من باعه لكافر ولو ذمياً ، واستحبوا

---

(١) سورة الواقعة ٧٥ – ٨٠ .

تحسين كتابته وإيضاحها وتحقيق حروفها — قال النووى : ويستحب أن يقوم للمصحف إذا قدم به عليه لأن القيام يستحب للعلماء والأخيار فالمصحف أولى .

فجمعنا هنا بعض ما ورد فى هذا الباب عن أهل العلم مثل النووى[1] والترمذى[2] والقرطبى[3] رضى الله عنهم :

١ — أول ما ينبغى للقارئ والمقرئ للقرآن ، أن يقصد بذلك رضى الله تعالى لقوله تعالى : « وماأمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » ، وألا يقصدوا به توصلا إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو وجاهة أو ثناء أو نحو ذلك . قال تعالى :

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَه فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ»[4]

٢ — أن يصون يديه فى حال قراءة القرآن عن العبث ، وعينيه عن تفريق نظرهما من غير حاجة ، وأن يقعد على طهارة

---

(١) فى التبيان فى آداب حملة القرآن . وفى رياض الصالحين وفى الأذكار .
(٢) فى نوادر الأصول (٣) فى الجامع لأحكام القرآن . (٤) الشورى

مستقبل القبلة ويجلس بوقار وتكون ثيابه نظيفة ، وإذا وصل إلى موضع جلوسه صلى ركعتين ويجلس متربعاً أو غير متربع ، فقد روى أبو بكر بن أبى داود السجستانى بإسناده عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه : أنه كان يقرئ القرآن فى المسجد جاثياً على ركبتيه .

٣ – ألا يمس القرآن إلا طاهراً لقوله تعالى :

« لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ » .

٤ – أن يقرأه على طهارة . ويحرم للجنب والحائض قراءة القرآن سواء آية أو أقل . فإن قرأ محدثاً جاز بإجماع المسلمين ، ولكنه ترك للأفضل فإن لم يجد ماء تيمم .

٥ – أن يستاك ويتخلل فيطيب فاه إذ هو طريقه .

٦ – أن يلبس كما يلبس للدخول على الأمير لأنه مناج ربه .

٧ – الأفضل أن يستقبل القبلة لقراءته فقد جاء فى الحديث : « خير المجالس ما استقبل به القبلة » . ويجوز قائماً أو مضطجعاً أو فى الفراش أو غير ذلك لقوله تعالى :

« ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى

جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ ـ وَٱلْأَرْضِ » .

٨ ـ ينبغى أن يكون مجلسه واسعاً ليتمكن جلساؤه فيه ، فقد روى أبو داود فى سننه بإسناد صحيح من رواية أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « خير المجالس أوسعها » .

٩ ـ ينبغى أن يبكر بقراءته أول النهار ، لحديث النبى ﷺ : « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » .

١٠ ـ الخشوع والسكينة والوقار عند تلاوته ، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق فاستبقوا الخيرات لا تكونوا عيالا على الناس . وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس مفطرون ، وبحزنه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون .

١١ ـ أن يتمضمض كلما تنخم ـ وكان ابن عباس يكون

بين يديه تور[1] كلما تنخع تمضمض .

١٢ — إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة تعظيما للقرآن ولأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه والتثاؤب من الشيطان .

١٣ — أن يستعيذ بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم لقوله تعالى :

« فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ ، الشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ »[2] .

١٤ — أن يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إذا ابتدأ قراءته من أول السورة ، وفي رأى أو من حيث بلغ .

١٥ — إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة .

١٦ — أن يخلوا بقراءته حتى لا يقطع عليه فيخلطه بجوابه .

١٧ — أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل .

١٨ — أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه ، حتى يعقل ما يخاطب به.

١٩ — أن يقف على آية الوعد ، فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله .

---

(١) التور : إناء يشرب فيه . (٢) سورة النحل ٩٨ .

٢٠ ـ أن يقف على آية الوعيد . فيستجير بالله منه .

٢١ ـ أن يقف على أمثاله فيتمثلها ، فقد صح عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : « صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة فافتتح بالبقرة ، فقلت يركع عند المائة ، ثم مضى فقلت يصلى بها فى ركعة ، فمضى ثم افتتح آل عمران فقرأها ، فقلت يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ثم المائدة قرأها يقرأ ترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ » رواه مسلم .

٢٢ ـ أن يلتمس إعرابه (يعنى معناه) ويحرم تفسيره بغير علم .

٢٣ ـ يستحب ترديد الآية للتدبر ، فعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قام النبى ﷺ بآية يرددها حتى أصبح . والآية :

« إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُم عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيم »[1] .

رواه النسائى وابن ماجه . ورددت أسماء بنت أبى بكر طويلا :

« فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » .

---

(١) المائدة ١١٨ .

وردد ابن مسعود :

«وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا» .

٢٤ ــ أن يؤدى لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماماً ، فإن له بكل حرف عشر حسنات .

٢٥ ــ ينبغى للقارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أو وقف على غير آخرها أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض وأن يقف على آخر الكلام المرتبط ولا يتقيد بالأعشار والأجزاء .

٢٦ ــ إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ويشهد بالبلاغ لرسوله ﷺ . ويشهد على ذلك أنه حق فيقول : صدقت ربنا وبلغت رسلك ونحن على ذلك من الشاهدين ، اللهم اجعلنا من شهداء الحق القائمين بالقسط . ثم يدعو بدعوات .

٢٧ ــ ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها .

٢٨ ــ إذا وضع المصحف ألا يتركه منشوراً .

٢٩ ــ ألا يضع فوقه شيئاً من الكتب حتى يكون أبداً عالياً لسائر الكتب ولو كانت كتب علم .

٣٠ ــ أن يضع المصحف فى حجره أو على شئ بين يديه ولا يضعه على الأرض .

٣١ ـ ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء .

٣٢ ـ أن يتوقى به النجاسات .

٣٣ ـ ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب .

٣٤ ـ ألا يخلى يوماً من أيامه من النظر فى المصحف مرة ، فعن أبى أمامة الباهلى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » (رواه مسلم) . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « يقال لصاحب القرآن أقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها » (رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح) .

٣٥ ـ أن يعطى عينيه حظهما منه لقوله ﷺ : « أعطوا أعينكم حظها من العبادة . قالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه » كما قال : « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظراً » .

٣٦ ـ ألا يتأوله عندما يعرض له شئ من أمر الدنيا ، كأن يقول للرجل إذا جاء : « جئت على قدر يا موسى » وكأن يقول إذا حضر الطعام : «كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية»

٣٧ ـ ألا يقرأ منكوساً التماس إظهار الحذق والمهارة .

٣٨ – ألا يقرأ بتلحين الغناء ، كلحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ، ولا نوح الرهبانية .

٣٩ – أن يحلل تخطيطه إذا خطه .

٤٠ – ألا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغض إليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبى ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن وكان يسمع لمسجد الرسول ﷺ بتلاوة القرآن الكريم ، حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » .

٤١ – ألا يمارى فيه ولا يجادل فى القراءات ، ولا يقول لصاحبه ليس هكذا هو .

٤٢ – ألا يقرأ فى الأسواق ، ومواطن اللغط واللغو ، ومجمع السفهاء .

٤٣ – ألا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه . بل إن توسد آحاد كتب العلم حرام .

٤٤ – ألا يرمى بالمصحف إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله له .

٤٥ – ألا يصغر المصحف . وروى عن عمر بن الخطاب أنه رأى مصحفاً صغيراً فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا . فضربه بالدرة وقال : عظموا القرآن . ونهى رسول الله أن يقال

مسيجد ومصيحف . غير أنه فى أيامنا هذه كثر طبع مصاحف صغيرة الحجم حتى يسهل حملها فى الجيب ونعتقد أنه لا بأس من ذلك لنفعها .

٤٦ ــ ألا يخلط فيه ما ليس منه . ولا بأس من المصاحف ذات التفاسير لأنها تكون بالهامش ولا تختلط بالقرآن ذاته .

٤٧ ــ ألا يحلى بالذهب فتخلط به زينة الدنيا .

٤٨ ــ ألا يكتب على الأرض ولا على الحائط ، كما يفعل به فى المساجد المحدثة .

٤٩ ــ أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور ــ وكان رسول الله ﷺ إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات لئلا يكون فى هيئة المهجور . وعن ابن عباس قال : جاء رجل فقال يا رسول الله أى العمل أفضل ؟ قال عليك بالحال المرتحل . قال : وما الحال المرتحل ؟ قال صاحب القرآن يضرب فى أوله حتى يبلغ آخره ثم يضرب فى أوله كلما حل ارتحل .

٥٠ ــ إذا ختم القرآن يستحب أن يجمع أهله ، فعن قتادة أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع أهله . وقال الحكم كان مجاهد وعبدة بن أبى لبابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا وجهوا إلينا أحضرونا فإن الرحمة تتنزل عند

ختم القرآن . وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ أمر الحيض يوم العيد ليشهدن الخير ودعوة المسلمن .

٥١ – ختم القرآن للقارئ وحده يستحب أن يكون فى الصلاة . وقيل يستحب فى ركعتى سنة الفجر وركعتى سنة المغرب وركعتا الفجر أفضل . ويستحب أن يختم ختمة فى أول النهار فى دور وختمة أخرى فى آخر النهار فى دور آخر . أما الجماعة الذين يختمون مجتمعين فيستحب أن تكون ختمتهم فى أول النهار أو أول الليل .

٥٢ – يستحب صيام يوم الختم إلا أن يصادف يوماً نهى الشرع عن صيامة كالجمعة وعيد الفطر .

٥٣ – الدعاء مستحب عقيب الختم استحباباً مؤكداً . وكان أنس بن مالك رضى الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا .

وينبغى أن يلح فى الدعاء وأن يدعو بالأمور المهمة ويختار الدعوات الجامعة .

٥٤ – ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به الخلاء إلا أن يكون فى غلاف من أدم (جلد) أو فضة أو غيره .

٥٥ – ألا يقال سورة صغيرة ، وكره أبو العالية أن يقال سورة صغيرة أو كبيرة ، وقال لمن سمعه قالها : أنت أصغر منها .

وأما القرآن فكله عظيم . ويعارض هذا حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله ﷺ يؤم بها الناس فى الصلاة .

٥٦ — يجب تعهد القرآن بالمواظبة على تلاوته ، وعدم تعريضه للنسيان ، فعن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : تعاهدوا هذا القرآن (أى حافظوا على قراءته وواظبوا على تلاوته) فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل فى عقلها . (متفق عليه) . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت » (متفق عليه) .

٥٧ — يكره أن يقول نسيت آية كذا وكذا بل يقول أنسيتها أو أسقطتها فى رواية الصحيحين « بئسما لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نُسِّى » .

٥٨ — ينبغى أن يكون الاعتناء بقراءة القرآن فى الليل أكثر ، قال تعالى :

« مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللَّهِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ »[1] .

وفى الحديث الصحيح عن رسول الله : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل » .

٥٩ — أفضل القراءة ما كان فى الصلاة ، أما القراءة فى غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل ، والنصف الأخير من الليل أفضل من النصف الأول . والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة . أما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح . ولا كراهة فى القراءة فى وقت من الأوقات . ويختار من الأيام الجمعة والاثنين والخميس ويوم عرفة . ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة . ومن الشهور رمضان .

٦٠ — عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نام عن حزبه من الليل أو عن شئ منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل » (رواه مسلم) .

(١) آل عمران ١١٣ .

٦١ – يستحب أن تكون القراءة فى مكان نظيف مختار ، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة فى المسجد . وأيضاً فى البيوت لما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة » (رواه مسلم) . وأما عن القراءة فى الحمام ففيها قولان أحدهما أنها لا تكره والآخر أنها تكره . أما حمامات اليوم التى تكون فى البيوت ويكون فيها مراحيض فنرى أنه لا يجوز القراءة فيها .

٦٢ – يستحب تحسين الصوت بالقرآن. فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما أذن الله لشئ ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » . (متفق عليه) أذن : استمع ؛ وهو إشارة إلى الرضا والقبول . وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « سمعت النبى ﷺ قرأ فى العشاء بالتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه » . (متفق عليه) . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم » (رواه أبو داود والنسائى) .

وعن أبى لبابة بشير بن عبد المنذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا » . رواه أبو داود

بإسناد جيد . يتغنى : يحسن صوته بالقرآن .

٦٣ – يستحب طلب القراءة من حسن الصوت . فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « اقرأ على القرآن » فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية :

« فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً » .

قال : « حسبك الآن » فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان . (متفق عليه) .

٦٤ – يستحب البكاء عند القراءة لقوله تعالى :

« وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ ، خُشُوعاً » .

ولقوله ﷺ : « اقرءوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » . وعن عمر بن الخطاب أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف ، فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته . وطريقه فى

تحصيله أن يحضر قلبه الحزن بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره فى ذلك ، فإن لم يحضره حزن وبكاء فليبك على فقد ذلك .

٦٥ – يجب الاستماع والإنصات إذا قرئ القرآن لقوله تعالى : «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» .

٦٦ – يستحب الاجتماع فى القراءة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » . رواه مسلم .

٦٧ – إذا كان يقرأ ماشياً فمر على قوم يستحب أن يقطع القراءة ويسلم عليهم ثم يرجع إلى القراءة ، ولو أعاد التعوذ كان حسناً .

والأولى ترك السلام على الجالس يقرأ القرآن ، فإن سلم عليه إنسان فالظاهر وجوب الرد باللفظ ولا تكفى الإشارة . وكذا إذا كان يقرأ القرآن فعطس غيره وحمد الله يستحب للقارئ أن يشمته .

٦٨ – لو سمع القارئ المؤذن ، يقطع قراءته ويتابعه ، ثم يعود إلى قراءته .

٦٩ – السجود فى مواضع السجود ، والأرجح أنه أمر استحباب . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول يا ويلى أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار » (رواه مسلم) .

٧٠ – إذا ارتج على قارئ ولم يدر ما بعد الموضع الذى انتهى إليه فسأل عنه غيره ، فينبغى أن يقرأ ما قبلها ثم يسكت ولا يقول أهو كذا أو كذا فإنه يلبس عليه .

٧١ – قراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر القلب لأن النظر فى المصحف عبادة مطلوبة .

٧٢ – تكره القراءة فى الركوع والسجود والتشهد وغيرها من أحوال الصلاة سوى القيام . وكذا حالة القعود على الخلاء وفى حالة النعاس .

٧٣ – إذا كان يقرأ فعرض له ريح فينبغى أن يمسك عن القراءة حتى يتكامل خروجها ، ثم يعود إلى القراءة ، وهو أدب حسن .

٧٤ ـ أن يبذل وسعه ويجاهد نفسه لكى يعمل به يأتمر بأوامره ، وينتهى بنواهيه ، فعن النواسى بن سمعان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به فى الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما » (رواه مسلم) .

٧٥ ـ أن يحفظ منه ما يستطيع . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الذى ليس فى جوفه شئ من القرآن كالبيت الخرب » . (رواه الترمذى وقال حسن صحيح) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

أحكام التلاوة والتجويد

التجويد فى اللغة هو التحسين ، يقال هذا شئ جيد أى حسن . واصطلاحاً هو إخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه . وحق الحرف صفاته الذاتية اللازمة له ، ومستحقه صفاته العرضية .

وربما كان تعلم أحكام التلاوة لا يكفى فيه الكتابة ويحسن الاسترشاد فيه بمن له معرفة بها لأنها أحكام تتعلق بالنطق . ولكنا نوضح هنا القواعد والأحكام ونحاول قدر الإمكان تبيان كيفية النطق بها ، وجدير بالذكر أن بعض المصاحف تتخذ قواعد فى الكتابة لإظهار النطق ، يحسن الالتفات إليها والرجوع إلى تعريف المصحف بآخره إن وجد ، وسنشير إلى بعض ذلك فى موضعه .

أولا — النون الساكنة والتنوين :

لاحظ نطق هذه الكلمات إذا رسمت بهاتين الطريقتين :

غَفُورُنْ – غَفُورٌ   شَرَابُنْ – شَرَابٌ

قَلِيلَنْ – قَلِيلاً   حَمِيمِنْ – حَمِيمٍ

نجد أن النطق واحد لا يتغير رغم اختلاف الرسم – لذلك نجد أن النون الساكنة والتنوين لها أحكام واحدة ، لأن التنوين لا يخرج عن كونه نوناً ساكنة ، أضيفت بعد الحرف المتحرك .

١ – الإدغام :

فالنون الساكنة أو التنوين إذا أعقبه راء أو لام فإنها تدغم إدغاماً كاملا فلا تنطق النون الساكنة أو التنوين .

مثل ر مِن رَّبِّهِمْ غَفُوراً رَّحِيماً .

ل لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ – لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .

ولبعض المصاحف فى إظهار هذه القاعدة طريقة هى التى أثبتنا بها هذه الأمثلة السالفة ، فمثلا تكتب النون فى (من ربهم) عارية من السكون مع تشديد الراء فتنطق (مِرَّ بِّهِمْ)
كذلك يلاحظ وضع الشدة على راء (رحيماً) فى (غَفُوراً رَّحِيماً)وعلى لام للمطففين فى (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)

وعلى لام (للشاربين) فى (لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِين) فتنطق. (لَذَّتِلِّلشَّارِبِينَ) .

٢ – الإدغام بغنة :

إذا جاء بعد النون الساكنة أو التنوين حرف من حروف كلمة « ينمو » فى كلمة أخرى تدغم النون الساكنة أو التنوين وتغن . والإدغام بغنة يعنى عدم النطق بالنون نطقاً ظاهراً ، بحيث يقرعه اللسان ، ولا إدغامها تماماً كأنها غير موجودة ، وتعطى الغنة حركتان . وسنعرض لمعنى الحركتين عند الكلام عن المد إن شاء الله .

ويلاحظ فى شكل إثباتها هنا طريقة بعض المصاحف وهذه بعض الأمثلة .

(ى) مَن يَّعْمَلْ وُجُوهٌ يَّوْمَئِذٍ .
(ن) وَمَن نُّعِمِّرْهُ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ .
(م) بَـٰلُوٌ مُّبِينٌ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى.
(و) رَحِيمٌ وَدُودٌ مِن وَّال .

ويستثنى من هذا كلمات أربع ، لا تدغم ولا تغن وإنما تظهر ، وهى : صنوان — قنوان — دنيا — بنيان .

والقاعدة فى ذلك أن هذه الأحرف وقعت بعد النون الساكنة فى نفس الكلمة فلا تدغم لثقلها ومنعاً للالتباس .

٣ — الإظهـــار :

إذا جاء بعد النون الساكنة أو التنوين حرف من الستة المذكورة فى البيت :

همز فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء

تظهر النون الساكنة أو التنوين إظهاراً كاملا بحيث يقرعه اللسان من غير غنة . (مهملتان أى ليس عليهما نقط) مثل :

(ء) يَنْئَوْنَ عَنْهُ . وَلَا شَرَاباً إلاَّ . مَنْ ءامَنَ .

(هـ) يَنْهَوْنَ عَنْهُ . لِكُلِّ قَوْمٍ هَـاد . مِنْهُم .

(ع) مِنْ عِلْمٍ سَمِيعٌ عَلِيم . أَنْعَمْتَ .

(ح) رُخَاءً حَيْث . غَفُورٌ حَلِيم . يَنْحِتُونَ .

(غ) مِنْ غَيْرِ سُوء . فَسَيُنْغِضُونَ . مِنْ غِلٍّ .

(خ) مِنْ خيْرٍ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ . المُنْخَنِقَة .

٤ – الإقلاب :

النون الساكنة أو التنوين ، إذ تلاه باء يقلب التنوين أو النون إلى ميم مع مراعاة الغنة والإخفاء . مثال ذلك :

مَشَّاءِ بِنَمِيم – أَنبِئْهُم – كِرَامٍ بَرَرَة – مِنۢبَثًّا – يَنْۢبَغِى – أَن بُورِكَ – سَمِيعٌ بَصِير – كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ .

ويلاحظ فى كتابة المصاحف وضع (م) صغيرة على النون الساكنة أو الحرف المنون فى حالات الإقلاب دلالة إقلابه ميما .
فإذا كان النطق العادى لعبارة (كرام بررة) بدون مراعاة لهذه القاعدة هكذا (كِرَامِنْ بَرَرَة) فإن مضمون القاعدة أن تنطق (كِرَامِمْ بَرَرَة)

٥ – الاخفات (أو الإخفاء) :

ذكرنا فى الحالات السابقة من الحروف التى تلى النون الساكنة أو التنوين ثلاث عشرة حرفاً ، فيبقى من حروف الهجاء خمس عشرة حرفاً ، إذا جاء أحدها بعد النون الساكنة أو التنوين

يخفت إخفاتاً أشبه ما يكون بغنة ، فيخفى التنوين أو النون الساكنة عند الحرف الثانى فهى قريبة من قاعدة الإدغام بغنة ، أى أنه ينطق بالحرف بصفة بين الإظهار والإدغام عار عن التشديد مع بقاء الغنة فى الحرف الأول .

وهذه الحروف هى : ت . ث . ج . د . ذ . ز . س . ش . ص . ض . ط . ظ . ف . ق . ك . وهى الحروف الأول فى كلمات هذا البيت :

صف ذا ثنا ، كم جاد شخص قد سما
دم طيبا ، زد فى تقى ، ضع ظالما

أمثلة :

(ت) كُنتُمْ – مَا أَنتَ – مَن تَوَلَّى – جَنَّاتٍ تَجْرِى .

(ث) جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ – مِن ثَمَرَةٍ – منثورا

(ج) نُنجِى – إن جاءكم – شيئا جنات .

(د) عِندَهم – أندادا – من دابة

(ذ) لِيُنذِرَ – من ذكر – سراعا ذلك .

(ز) يَنزَع – فإن زللتم – يومئذ زرقا .

(س) زلْفةً سِيئت – مِن سُوء .

(ش) إن شاء – مِن شعَائِرِ ٱللهِ – المنشئون .

(ص) نَنصُرُ – أَن صدوكم – ريحا صرصرا .

(ض) مِن ضَرِيع – منضود – مسفرة ضاحكة .

(ط) كَلِمَةٍ طَيِّبَة – وَإِن طَائِفَتَان – يَنطِقُون .

(ظ) يَنظُرُون – مِن ظَهِير – ظِلاًّ ظليلا .

(ف) قِتَالٌ فِيهِ كَبِير – فَإِن فَاءُوا – رَسُولاً فَيُوحِي – انفروا .

(ق) يَنقَلِب – مِن قَبْلِهِمْ .

(ك) إن كُنتُم – مَن كَان – ينكثون – عادا كفروا .

ثانياً — الميم الساكنة :

إذا أعقب الميم الساكنة باء أو ميم ، تدغم الميم الأولى وتغن مثـل :

(ب) مُبْتَلِيكُم بِنَهَر — فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ الله — إنَّ رَبَّهُم بِهِم — إليهم بهدية — هم بارزون .

(م) إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِين — وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكونوا تَعْلمون .

وفى بعض المصاحف تعرى الميم الساكنة ، فإن تبعها باء تشكل الباء بشكلها العادى ، وإن تبعها ميم تشدد الميم الثانية .

قاعدة : النون والميم المشددتان تغنان دائماً .

ثالثاً — القلقلة :

إذا جاء أحد حروف كلمة « قطبجد » ق ط ب ج د ساكناً فإنه يقلقل أى يمال سكونه إلى حركة خفيفة . مثل :

الْقَدْر — سُبْحَان — أَنُطْعِمُ — وُجْدِكُم — صٓ (تنطق صَادِ) خَلَقْنَا — قِطْمِير .

رابعاً – المـــد :

ونعرض هنا إلى ما يمد حركة وحركتان وثلاث حركات وست حركات وهكذا ، وليس معنى هذا أن الحركة لها زمن معين يقاس بكذا من الثوانى مثلا ، ولـكنه شئ نسبى بين الحروف بعضها وبعض لتنظيم نطق الحروف بمدها أو عدمه بمقدار معين . فمثلا كلمة « ذرأ » أو « أكل » أو « فصل » نعتبر كل كلمة منها ثلاث حركات ، باعتبار كل حرف من حروفها المتحركة حركة واحدة ، بمعنى أننا حين نقرأ « فَصَلَ طَالوتُ » ونمد ألف « طالوت » حركتين ، فإننا نعطيها من الزمن فى النطق مقدار ما ننطق به حرفين من كلمة « فصل » .

والمد أنواع نذكرها فيما يلى :

١ – **المد الطبيعى :** وهو حركتان :

مثل « مالك يوم الدين » موضع المد فى ألف مالك وياء الدين

٢ – **المد العارض للسكون :** يجوز قصره على حركتين أو التوسط بمده أربع حركات أو مده إلى ست حركات .

وهو ما بعده سكون فى آخر الكلمة مثل :

« وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين » .

فإذا وقفت فى القراءة على « بالظالمين » بتسكين النون كان هذا مداً عارضاً للسكون .

٣ – مد الهمز المتصل : وهو أربع حركات أو خمس على مذهب حفص ، وهو ما جاء بعده همز متصل فى كلمة واحدة مثل :

جَآءَ – جِىٓءَ – هٰؤُلَآءِ – الْمَلَآئِكَة .

أما إذا وقف عليه فله زيادة على ما تقدم المد ست حركات.

وإذا اجتمع مدان متصلان يجب التسوية بينهما فى المد مثل : أنزل من السماء ماء .

٤ – مد الهمز المنفصل : وهو من ثلاث حركات إلى خمس وعلى مذهب حفص فيه أربع حركات أو خمس كذلك .
وهو ما كان الهمز فيه بعد المد ولكن فى كلمة أخرى مثل :

وَإِذَآ أَرَدْنَا – إِلَّآ أَن يُحَاطَ – يَٰٓأَيُّهَا .

٥ – المد اللازم : وهو ست حركات ، من غير زيادة ولا نقص عند جميع القراء ، وهو ما يأتى فيه بعد حرف المد سكون لازم فى حالتى الوصل والوقف مثل :

الطَّآمَّةَ – تَـأْمُرُوٓنِّى – الضَّآلِّين – أَلٓمٓ (ألف لآمِّيم) ءآلْآن – دَآبَّة – أَتُحَآجُّونِّى .

أما إذا كان المد فى كلمة والحرف الساكن فى كلمة أخرى حذف المد فى الوصل . مثل :

وقالوا اتخذ – والمقيمى الصلاة – كاشفو العذاب .

٦ – مد اللين : وهو أربع حركات . وهو ماكان فى حرف الواو أو الياء الساكنة من غير مد إذا وقف على الحرف بعدها كما فى كلمة : يَوْم – دَيْن .

٧ – الحروف المفردة فى أوائل السور :

مثل : الٓمٓ – طه – يس – ق ... إلخ ، وهى أربعة عشر حرفاً . فحروف « نقص عسلكم » تمد ست حركات . وأما حروف « حى طهر » فتمد حركتان . وأما حرف الألف فلا مد فيه أصلا . فإذا قرأنا « طس » مددنا « ط » حركتين و « س » ست حركات وهكذا .

خامساً — اللام الساكنة إذا وقع بعدها « ر » ؛ فإنها تدغم مثل :

قُل رَّبِّ — بَل رَّفَعَهُ .

ويرى حفص عدم الإدغام فى « بَلْ رَانَ » ، ولذلك يسكت سكتة لطيفة على اللام والسكت يمنع الإدغام .

سادساً — المتجانسان إذا سكن الأول وتحرك الثانى أدغما وذلك فى الأحرف الآتية :

د	ت	قَد تَّبَيَّن
ت	د	أَثْقَلَت دَّعَوَا
ت	ط	هَمَّت طَّائِفَةٌ
ذ	ظ	إِذ ظَّلَمْتُم .
ث	ذ	يَلْهَث ذَّلِك .
ق	ك	نَخْلُقكُّم .

سابعاً — التفخيم والترقيق :

سبعة أحرف جمعها ابن الجزرى فى قول « خص ضغط قظ » تعرف بحروف الاستعلاء ؛ هى التى تفخم . أما ماسواها

من الحروف فلا يجوز تفخيم شئ منها إلا اللام والراء فى بعض أحوالهما .

أما الألف فهى تتبع ما قبلها ، فإن وقعت بعد مفخم فخمت مثل :

قال – طال – ظاهرين .

وإن وقعت بعد مرقق رققت ، مثل : كان – باء – شاء .

واللام تفخم فى لفظ الجلالة إذا وقعت بعد فتح أو ضم مثل :

آلله – تالله – ويعلم الله .

وترقق إذا وقعت بعد كسر مثل : بسم الله

وأما الراء ففيها تفصيل :

١ – فإن كانت مكسورة رققت ، مثل :

فَضُرِب – رِزْقًا – الغارِمِين .

٢ – وإن كانت مفتوحة أو مضمومة فخمت مثل :

رَبَّنَا – الرَّحْمَن – الرُّوح – رُزِقنا .

أما الراء الساكنة فلها حال من ثلاث ، إما أن تكون أول الكلمة

بعد همزة وصل ، وإما أن تكون فى وسطها وإما أن تكون فى آخرها .

٣ ـ فإن كانت فى أولها فهى مفخمة مطلقاً ، مثل :

وَٱرْزُقْنَا ـ ٱرْكُضْ .

٤ ـ وإن كانت وسط الكلمة وجاءت بعد كسر فلها حالات :

(١) أن لا يقع بعدها حرف استعلاء وحينئذ ترقق مثل :

فرعون ـ شرذمة ـ مرية .

(ب) أن يقع بعدها حرف استعلاء فى كلمتها فتفخم ،مثل :

قرطاس ـ مرصادا .

(ج) أن يقع بعدها حرف استعلاء فى كلمة أخرى ، فترقق ، مثل :

تصعر خدك ـ فاصبر صبرا .

٥ ـ أما إذا كانت فى آخر الكلمة وهى ساكنة ووقع بينها وبين الكسر قبلها ساكن من غير حروف الاستعلاء ، أو ياء ساكنة فإنها ترقق مثل :

الفهرس

محتويات الكتاب

الموضـــوع | صفحة

الموضـــوع	صفحة

الموضـوع	صفحـة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٣٢٩٦ / ٢٠٠٥